Gaylord
PAMPHLET BINDER
Syracuse, N. Y.
Stockton, Calif.

Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES

اقرأ

محمود تيمور

أبو علي الفنّان

وقصص أخرى

دار المعارف بمصر

أبو علي الفنّان

وقصص أخرى

محمود تيمور

أبو علي الفنّان

وقصص أخرى

اقرأ ١٣٦
دار المعارف بمصر

893.7T136
O

اقرأ ١٣٦ – أول أبريل ١٩٥٤

18515F

جميع الحقوق محفوظة
لدار المعارف بمصر

أبو علي الفنان

١

أدركه اليتم من طرفيه ، إذ قضى والداه جميعاً ، وما برح فى طفولته يدرج ، فكفله من ذوى قرابته عمُّه ، إلى منزله أوى ، وفى كنفه عاش . . .

ذلك هو الفتى « حسن عبد الكريم » — الملقب بـ « أبى على » — وهو قزم شائه الخلقة ، مهزول الأوصال ، مديد اليدين ، يبدو وجهه مستطيلا أعجف ، متدلى الأنف ، مقلتاه فى محجريْهما غائرتان .

دخل الفتى إحدى المدارس الابتدائية ، وظل يكافح فيها حتى بلغ السنة الرابعة ، فإذا هى عقبة حياله كئود ، وأعياه أن ينالَ الشهادة الابتدائية ، فلم يجد عمُّه بدًّا من أن يشركه فى عمله ، وكان عمه بَدّالاً ، فألحقه بحانوته ، يتولى البيع ، ويدوّن حساب المتجر .

وأمضى الفتى أيامه هانئاً بحياته ، مطمئناً إلى سعيه ، يختلف إلى المسجد ليؤدى فيه الصلوات ، ولا يعرف له

مثابةً غير البيت والحانوت ، فرضى عنه عمه الرضا كلَّه ، يدعو له ، ويُثنى عليه .

وكان بين المتردّدين على الحانوت شاب يدعى «عبد الواحد» لا عمل له ، تقوتُه أمُّه ، يقتل نهارَهُ تسكّعاً بين الأندية والحوانيت ، ويحيي ليله تنقلا بين الملاهى ودور التمثيل .

تعارف الفتَيان : « أبو على » و « عبد الواحد » ، يجمعهما الحانوت ، فى اليوم بعد اليوم ، حتى استوثقت بينهما الألفة ، وطابت لهما المؤانسة ، فتلازما يقصران بحديثهما أمدَ النهار الفارغ ، ويجلوان عن نفسيْهما صدأ السآمة والملال .

ولم يكن « عبد الواحد » يعدو بحديثه دائرةَ التمثيل ، فإن حديثه فيه ذو شجون ، وإنه فيه لطويل الباع . . . و « أبو على » لا يملك فى هذا الحديث إلاّ أن ينصت ، مشبوبَ النفس ، مشغوفَ الفؤاد ، يقول : هل من مزيد ؟ فاستطاع بظهر الغيب أن يعرف شأن المسرح كله ، يتنسّم جوه ، ويتنوّر ضوءَه ، ويتمثل ماله من أطياف وتهاويل .

ووافاه صاحبُه بما تنشره الصحف والمجلات من حديث المسارح وأنباء التمثيل ، وما تَعلّق به يده من روايات وأقاصيص ، منها المطبوع ومنها المخطوط والمنسوخ . فأقبل عليها الفتى ينهل ويستمرئ ، وكلما أمعن فى القراءة ، ازداد من شوق وطموح .

وبينما كان الفتيان يتناقلان الحديث ذات يوم ، إذ قال « أبو على » لصاحبه :

وددت أن أشهد التمثيل مرة . . .

— وماذا يمنعك ؟

— ربما أبى ذلك عمى .

— عمك يثق بى ، فهل تحب أن أستأذنه لك ؟

فتهلل وجه « حسن » وهو يقول :

يسرنى أن تفعل .

وانصرف « عبد الواحد » يتفقّد عم الفتى ، حتى وافقه فى حانوت جار له . فما إن فاتحه فى الأمر حتى أنكر الرجل عليه أشدّ الإنكار . . . كيف يُجيز لابن أخيه أن يَؤُم هذه الملاهى ، وهى بدعة ومَضلة ؟

فلبث الفتى يزيّن للرجل مشاهدة التمثيل ، ويصفُه بأنه أصبح فى زمننا الحاضر وسيلة تأديب وتهذيب ، منه تُنتزع الحكمة ، والموعظة الحسنة ، وبه تُكتسب الفضيلة ، ومكارم الأخلاق .

ولم يشأ الرجل أن يتمادى فى إنكاره ، حتى لا يُتّهم بالغفلة والجهالة والبله ، فقبل بعد لجاجة وإلحاف أن يأذن « لحسن » فى مرافقة « عبد الواحد » إلى إحدى دور التمثيل ، من باب العلم بالشىء ، على أن تكون مرة لا تتبعها مرةٌ . . .

فانطلق « عبد الواحد » إلى صاحبه يزف إليه البشرى ، فطار بها فرحاً ، وعجل إلى عمه يطبع على يده قُبلة الشكر ، وانتحى بصاحبه يسأله :

متى موعدنا ؟

— الليلة . . . فى الساعة التاسعة .

وبعد أن فرغ الفتى من أداء صلاة العشاء ، خرج إلى صديقه « عبد الواحد » يسايره إلى مسرح « جمعية ترقية التمثيل » حيث تعرض رواية « الممثل » . . . وفى

بعض الطريق كان « عبد الواحد » يبسط لرفيقه موضوع الرواية ، ويهيئ ذهنه لكل ما سيراه .

ودخلا قاعة المسرح ، دون أن يؤديا رسم الدخول ، لا يعترض طريقهما أحد ، إذ كان « عبد الواحد » معروفاً لحراس الباب ، يبادلهم تحية الأخدان للأخدان .

واتخذ « حسن » مقعده فى القاعة ، يشيع بين جنبيه الطرب والمراح . . . فلما انكشفت الستارة ، وأخذ الممثلون يتجلون فى المواقف ، شرِهتْ عين الفتى إلى المنصة ، وظل يرنو ، جيّاش النفس ، من حيرة وإعجاب !

وفى ترويحة الفصل الأول مضى « عبد الواحد » برفيقه إلى دخيلة المسرح ، ليريه الممثلين عن كثب . فكلما مرّ واحد منهم بالفتى راعتْه بزته ، وشارته ، وحملق فيه ، حتى ليكاد يستوقفه ، أو ليكاد يلمسه .

وإذْ عاد إلى مقعده من القاعة ، يستأنف مشاهدة الرواية ، مال على « عبد الواحد » يهمس فى أذنه :

لا أكاد أصدق أنّ هؤلاء الممثلين من البشر !

فابتسم صاحبه يسأله :

ولماذا ؟

ـ ألا تحس بشيءٍ غريب . . . منهم ينبعث ، وفيهم يتوضّح ؟

ـ أى شيءٍ غريب تَعنى ؟

ـ ليس فى مستطاعى أن أصفه لك بلسانى ، ولكنى أحسّه بروحى . . .

وتمت الرواية فصولاً ، فصدَر الفتى عن المسرح يقول لصاحبه « عبد الواحد » :

أفى وسعك حقًّا أن تشهد التمثيل كل ليلة ؟

ـ هذا فى وسعى ، ولكنى لا أفعل . . .

ـ إنك لسعيد . . ولكنك لا تقدر ما أنت فيه من سعادة !

٢

تسنّى للفتى « حسن » أن يحضر التمثيل مرّات . . .

وتعاقبت عليه الأيام من بعد ، يَرين على نفسه انقباض ونفرة من الناس ، ويخبو نشاطه فى القيام على

شئون الحانوت ، ويستسلم فى يقظته لأحلام وتصورات ، فإذا أزعجه عنها أحد صاح به الفتى فى سخط وحنق .

ونظر إليه عمه يوماً وهو فى غمرة من ذهوله ، وخموله ، فقال له يلاطفه :

أتجدك مريضاً يا « حسن » ؟ ألا ترجع إلى البيت تستريح فيه ؟

فنفى الفتى عن نفسه المرض ، فى خشونة وجفوة ، وأصر على أن يبقى فى الحانوت يزاول عمله المألوف .

ورأب الرجلَ أن الفتى يتخلف عن البيت بعض الليل دون أن يؤذن له ، فذهب به الظن إلى أن الفتى يقضى أماسيَّه فى دور التمثيل ، فحَظَر عليه السهر خارج البيت ، وأحكم حوله رقابة لا يملك معها الإفلات .

وشوهد الفتى يخفى دفتراً صغيراً فى جيبه ، مترصداً لكل فرصة تسنح ، فلا يلبث أن يخرج الدفتر ليقرأ ويكرر القراءة ، ثم لا يفتأ يتلو على نفسه ما قرأ .

وجاءه « عبد الواحد » ضحوةَ يومٍ ، فاجتذبه « حسن » من يده ، وأوغل به فى مخزن الحانوت الأغبش ، قائلاً

له فى لهجة المزهوّ :

لقد أتممتُ الرواية حفظاً . . .

ــ أية رواية ؟

ــ رواية « الممثل » التى أعرتنى إياها .

ــ إنك لم تخبرنى بعزمك على ذلك .

وأخرج الفتى رواية « الممثل » من جيبه ، ودفعها إلى صديقه وهو يفتح صفحاتها كما اتفق ، ويقول :

استمع لى .

وانبرى يتلو بعض قطع من الرواية فى إلقاء تمثيلى ، و « عبد الواحد » تجاهه ، فاغر فمه ، يعروه الدهش ، وما هى إلا أن نهض يعانق صاحبه قائلاً له :

أحسنتَ كل الإحسان يا « حسن » . . . كيف تيسر لك أن تجيد التمثيل هذه الإجادة ؟

فاشرأبّ الفتى يجيب :

التمثيل هبة يمن بها الله على مَن يشاء من عباده .

وسادهما الصمتُ هنيهةً ، ثم قال « عبد الواحد » :

سيعاد تمثيل هذه الرواية عما قريب . . . فما رأيك

فى الاشتراك فى تمثيلها مع الفرقة ؟ .

فبرقت عين « حسن » وهو يقول :

أفعل . . . ولكن . . .

— ولكن عمك . . . أليس كذلك ؟

فاحتدّ الفتى فى قوله :

سأذهب . . . رضى عمى أو كره . . .

وتابع الفتى جهده فى استذكار الرواية ، يحتبس فى مخزن الحانوت الأغبش ، نمثل بعض المشاهد ، تارة وحده ، وتارةً مع قرينه « عبد الواحد » . . . وكان قرينه هذا قد اتفق مع الفرقة على أن تضم « حسناً » إلى البطانة « الكومبارس » ، فيظهر ليلة التمثيل على منصة المسرح .

وتبدلت حال الفتى « حسن » فأهمل كل الإهمال ما بين يديه من عمل ، ولم يعد يهتم بأداء الصلاة ، وكثيراً ما غاب عن الحانوت غير مكترثٍ به . . . وتمرّد على عمه ، لا يعبأ بنذيره وتحذيره ، فهو ينسل من الحانوت مع صاحبه ليحضر تجارب الرواية فى دار التمثيل .

وفى ساعة من نهار قدم « عبد الواحد » على الفتى

فى حانوته ، يُسرُّ إليه القول ، وكان عمه على مقربة ، وما إن لمحهما يتسارّان ، حتى ركبه شيطانه ، فدفع « بعبد الواحد » يقصيه عن الحانوت ، وانثنى على ابن أخيه يضربه بعصاه ، فى غير رحمة ولا إشفاق !

٣

وذات مساء ، أغلق الشيخ « مبارك » — عم الفتى — حانوته ، واتخذ سبيله إلى البيت ، وفى صحبته « حسن » . . .

وبعد أن تناولت الأسرة عشاءها ، أوى الرجل إلى حجرته الخاصة ، ولحقت به زوجه « أم خليل » تحمل له قدح القهوة ، وكان « حسن » يعلم علم اليقين أن عمه متى دخل حجرته ، وشرب قهوته ، وبدأ صلاته ، فسيمضى بقية ليله ، لا يغادر مخدعه حتى يحين صباح .

لا غَرْو إذن أن يخلع « حسن » حذاءه ، وأن يمشى رويداً على أطراف أصابعه ، ينسرق من البيت انسراق اللص ، وقلبه مطمئن إلى أن عمه لن يكشف

سر خروجه فى الليل .

وكيف لا يترك « حسن » البيت فى هذه العشيّة ، وهى موعد التمثيل ، و « عبد الواحد » على باب المسرح ينتظر مقدمه .

وأسرع « حسن » إلى المسرح ، يلجه من الباب الخلفى الخاص بالممثلين ، فحشروه فى البطانة ، وعُنى القيّم على أمرهم بإلباس كل منهم ما يجانس موقفه من زىّ ، وبتلوين وجهه وتشكيل هيئته ، على النحو الملائم له ؛ فبدا « حسن » فى لبوسه التمثيلى ، يميل على صاحبه قائلاً له :

أتعلم يا « عبد الواحد » أن أروع ساعة فى حياة الممثل هى الساعة التى يقف فيها أمام المرآة خاضعاً لعملية التلوين والتشكيل ؟ . .

ودقّ المسرح دقات البدء ، فلبث الفتى مشغولاً بالتعليمات يتلقاها من القيّم على مواقف البطانة ، معدًّا نفسه للظهور أمام جمهرة النظّارة . وبين الفينة والفينة ينفلتُ إلى إحدى الحجر ليواجه المرآة ، فيصلح من هندامه ،

ويضع يده على مقبض سيفه ، ويخطو بضع خطوات فى رزانة واتزان .

وبعد أن فرغ الفتى من أداء مهمته على المسرح ، خرج إلى الطريق ذاهلاً يقطب جبينه ، و « عبد الواحد » بجانبه يكلمه فلا يجيبه ، فلما عيل صبرُه سأله :

مالك لا تتكلم ؟ أتشكو شيئاً ؟ .

فأجابه الفتى مقتضباً فى غير التفات إليه :

ليس بى من شىء . . . ولكنى أفكر . . . أفكر فى أمور جسام !

٤

شغف الفتى بفن التمثيل أيما شغف ، ملك عليه الفن يقظته ونومه ، فهو أينما حل ؛ فى ثورة من هواجسه وتصوراته ، وهو فى عالم الأحلام يرى أنه يمثل موقف البطل الأول ، فى رواية « الممثل » ، والنظارة فى أرجاء القاعة دامية أكفهم من التصفيق .

واستبد به حبّ الفن . . . فإذا احتواه الحانوت يبيع الجبن والزيتون ، أحسّ فى ذلك امتهاناً لكرامته ، ومضيعةً لوقته ، وامتلأت نفسه بالتأفف والازدراء ، فجعل يهرب فى النهار من الحانوت كلما واتته فرصة الهرب ، ليلقى صديقه « عبد الواحد » فيصحبه إلى دار المسرح لمشاهدة التجارب ، وطفق يرصد غفلات الأسرة فى الليل ليحضر حفلات التمثيل .

وكان الشيخ « مبارك » يبذل جهده فى تقويم ما اعوج من أمر ابن أخيه ، يخاشنه مرةً ويحاسنه أخرى ، ولكن الفتى ظل على حاله لا يردعه ضرب ، ولا ينجع فيه نصح . بل لقد أصبح يجد فى نفسه اشمئزازاً من عمه ، وإصغاراً لشأنه ، فهو فى حسابه جامد الفكر ، مأفون الرأى ، جهول ، غير مقدر للفن قدْرَه الجليل .

وزاد الهوس بالفتى ، فعمد إلى الموسَى يُمرها على منابت شاربه لكى يخضرّ ، وعُنى بشعر رأسه حتى يغزر وينمو ، وفزع إلى كسار مرآته ينظر ويفحص ؛ ليشد جلدة وجهه ، ولا يزال يغضنها لكى تتكمش ، وهل أدل على

عبقرية الممثل من رأس مهوّش الشعر ، ووجه تكاثرت عليه التجاعيد ! ؟

وكان إذا آنس وقتاً من النهار لا بيع فيه ، دلف إلى المخزن الأغبش فى أقصى الحانوت ، فضحك وعبس ، وأومأ وأشار ، واشرأبّ وتقاصر ، وتكلم وغمغم ، حتى ينهكه التمثيل ، أو يصيح به زبون يطلب الجبن والزيتون ، فيبرز من المخزن محتقن الوجه ، ندى الجبين . . . !

وسقطت للفتى بعد لأْيٍ حلة من حلل التمثيل مهلهلة ، فكان إذا خلا إلى حجرته ارتداها ليمثل بها بعض المواقف الحبيبة إليه فى تحمس واهتياج .

وحرص الفتى على أن يتم التعارف بينه وبين الأدباء والممثلين ، وأدركوا منه ما يحمل بين جنبيه من ولع بالتمثيل وما إليه ، فلا تكاد تراه جماعة منهم حتى ترغب إليه فى أن يلقى شيئاً مما يجيد ، فيبدى بعض التمنع والتعذر أول الأمر ، ثم يندفع فى الإلقاء بغتة ، تنتظمه رعشةٌ ، وما إن يفرغ من تمثيله حتى يرتجّ المجلس بالتضاحك والتهلل والتصفيق . . . !

ومرةً كان يضمه أحد الأندية ، فى شارع « عماد الدين » ، ومن حوله جمع الصحاب يستمعون إليه ، وقد وقف يعرض تمثيلياته المختارة ، وحنجرته تكاد تنشق من الصياح ، فتهافت السابلة عليه يتفرجون ، وأقبل منهم رجل مهذار على الفتى يصافحه فى حميّة وهو يقول :

لقد أبدعت يا أستاذ إبداعاً يعيا لسانى بوصفه ، فأهنئك من أعماق قلبى !

ثم التفت إلى الجمع المزدحم ، مهيباً بهم أن يحيّوا الفنان العظيم ، هاتفاً :

فليحى نابغة التمثيل .

فردد القوم نداءه متغامزين ، ودنا الرجل المهذار من الفتى يحمله على كتفه ، ويطوف به ، والناس من خلفه يتبعونه فى ضجة ومراح .

وعاد الرجل المهذار بالفتى يجلسه على كرسيه ، ويساجله الحديث فى شئون الفن ، ومن حولهما حلقة المحتفلين ينظرون ويسمعون ، فتطلع الفتى إليهم وضاء الجبين ، يهزه طرب ، وانطلق يتحدث عن التمثيل حديثه المستفيض ،

فقال له الرجل المهذار :

لماذا لا تحترف التمثيل ، فيكون لك فيه عمل بارز يا أستاذ ؟

ـ عمل بارز ؟

ـ إنّ لك مواهبَ ممتازة ، فلماذا تحبسها يا أستاذ ؟

فصمت « حسن » هنيهة ، ثم أجاب :

هذا شغلى الشاغل الآن يا سيدى ، فلا تحسبنّ سكوتى تقصيراً فى واجبى . . . سترى فى القريب ما أنا فاعله !

ـ لا بد أن لك خطةً تزمع إنفاذها يا أستاذ . . .

ـ خطة وأى خطة !

فقال رجل من الحلقة :

أيأبى الأستاذ أن يصرح لنا بما ينوى أن يفعل ؟

فابتسم الفتى ، ثم مطّ شفتيه يقول :

أعفنى من التصريح الآن يا سيدى . . .

وانفض الجمع ، فخرج الفتى يعتسف الطريق لا يعرف له وجهة ، تمور فى رأسه الأفكار ، وتجيش فى نفسه

الأحاسيس . وإذا هو يصادف صديقه « عبد الواحد » ، فهتف به ، وبسط له ذراعيه وقال :

احتضنّى يا صديقى وقبّلنى . . .

فلمْ يتوان « عبد الواحد » فى الاستجابة لصاحبه ، وتابع « حسن » قوله :

ليتك كنت معى منذ قليل . . . لقد كانت ساعة انتصار ليس بعده انتصار !

— أى انتصار يا عزيزى ؟

فأمسك الفتى عن الجواب لحظةً ، ثم مال على صديقه يقول له :

اسمع يا « عبد الواحد » . . . لمْ نعدْ صغاراً . لماذا لا تدعونى بلقب أستاذ ، بدلاً من قولك « يا عزيزى » ؟ . . .

فأجابه « عبد الواحد » وهو فى حيرة من أمره :

ولم لا يا أستاذ ؟

فتطلّق وجه « حسن » ، وشرع يقص على صاحبه حديث النجاح الذى واتاه اليوم ، فلم يسع صاحبه إلا أن يشدّ على يده قائلاً :

أهنئك يا أستاذ . . . وددت لو شهدت هذا النجاح بعينى !

فرفع الفتى رأسه إلى صديقه يقول له فى جد واهتمام :

اسمع يا عبد الواحد » . . . لقد انتويت أن أقوم بعمل جسيم فى عالم التمثيل . . . أفأجدك عوناً لى ؟

— وهل حسبتنى أحجم عن عونك ؟

— بورك فيك . . .

— أىّ عمل تعنى ؟

— هذا سر أحتفظ به الآن . . .

وسكت لحظة ، ثم استأنف يقول :

إنى مضطر أن أودعك ، لأعجل إلى بعض عملى . موعدنا غداً فى « قهوة الفن » . . .

٥

extended

لم يصح « حسن » من نومه حتى متع النهار ، فلما ذهب إلى الحانوت ، وجد فيه غلاماً يدعى « يوسف »

اجتلبه عمه ليزاول شئون المتجر ، فوقع فى وهمْ « حسن » أن عمه إنما استعان بذلك الغلام ليخفف عن ابن أخيه ، فَسُرَّ بذلك أيَّما سرور ، واعتقد أن الأقدار تؤازره ، وتُمهّد له تحقيق رغابه ، وعوّل على أن يفاتح عمه ، فيما يشغل باله من الأمر العظيم .

وصحب الفتى عمه إلى البيت ، ليصيبا غداءهما ، كلاهما يخطو صامتاً ، كأنهما رفيقا طريق ليس بينهما تعارف ، وكلاهما يريد أن يُفضى بذات نفسه فلا يفعل . وجمعت المائدة بين الفتى وعمه ، وزوجته « أم خليل » فجعلوا يأكلون وهم سكوت ، على وجوههم قطوب . وأطبق على المجلس سكون لا يخدشه إلا نباح ، يبعثه كلب الجيران من بعيد ، كأنه نواح الثكلى .

وتشعثت نظرات الفتى فيمن حوله وفيما حوله . . . هذا عمه يبدو وقد استبانت فيه الشيخوخة ترعش يَدَه ، وتخط فى وجهه الأخاديد . وتلك امرأة عمه تضع على رأسها خمارها الأسود ، وتتباطأ فى ازدراد الطعام ، وتتنهّد فى الحين بعد الحين . . . وذلك هو أثاث البيت ، يحيط

بالفتى ليثير فيه ذكريات ماضيه ، ويجمع عليه أحداث حياته .

ونكس « حسن » رأسه تثقله الهواجس ، وَنَدَّتْ منه تنهدة جياشة ، جاوبتْها تنهدة عمه ، وامرأة عمه معاً ، وهما ينظران إليه . والتفت الشيخ « مبارك » إلى زوجه يقول :

أليس من الرزية أن أستعين فى الحانوت بغلام غريب ، ولى ابن أخ رجوتُ عونه ، وعولتُ عليه ؟

فأخذ الفتى بما يسمع ، ولم يزد على أن تنحنح ، وأجابت الزوجة رجلها تقول :

وما حيلتك يا شيخ « مبارك » ؟ وتلك هى القسمة والنصيب !

— حقاً . . . ولكن ما أسوأها من قسمة ونصيب .

وأطرق لحظةً ، ثم استأنف قوله لابن أخيه :

لقد أديتُ واجبى نحوك يا بنى . . . ولا ذنب لى فيما أنت صائر إليه . . . لقد عُنيت بإدخالك المدرسة ، وبذلت جهدى فى أن أجد منك رجلا متعلماً ، ينفع نفسه ، ويكون لنا ذخيرةً فى مستقبل الأيام ، ولكنك

أخفقت ، فألقيت إليك مقاليد الحانوت لتحسن التجارة وتخلفنى فى العمل ، فإذا أنت تسىء السيرة ، وإذا أنت لا تجدى فى إصلاح حالك وسائلُ العنف أو الرفق ، وأبيتَ إلاّ أن تنساقَ فى تيّار اللهو والفساد . وكان حقًّا عليك — جزاء ما أسديتُ إليك — أن تحمل عنى العبءَ ، وتوفّر لى الراحة ، إذْ تقدمت بى السن ، وأشرفتُ على نهايةِ العمر .

فدعمت « أم خليل » رأسها بيديها ، وتبادرتْ الدموع إلى عينيها ، وحمجمت تقول :

هذا حظّنا من الدنيا . . .

وأحس الفتى شفتيه ترتعشان ، وهو يقول :

أنا يا عمى معذور . . . والله إنى معذور . . .

فأجابه العم ، مرير اللهجة :

حقاً يا بنى . . . لك عذرك . . . وهل ينكر ذلك أحد ! ؟

— إنك يا عمى لا تعرف قدرى . . . إنك لا تفهمنى !

— كيف لا أقدرك ، ولا أفهمك ؟ . . . أنا مقدر

وفاهم كل الفهم . . .

ـ ولماذا إذن تنكر علىّ ما أعمل ؟ !

ـ أنت فى ضلال . . . أنتَ مجنون ! .

ـ يا عمى أنا فنان . . . أنا « أرتست » !

ففغر الرجل فاه يقول :

أى شىء هو « الأرتست » يا بنى ؟

فاتخذ الفتى لنفسه سمت المعلم ، يشرح لطلاّبه ما غمض من المسائل ، وأجاب بقوله :

« الأرتست » يا عمى هو « الممثل » . . . هو من أوتى موهبة الفن ، وعبقرية التشخيص . . .

فلم يكد يتم جملته ، حتى عاجله الشيخ « مبارك » ببصقةٍ توسطت وجهه ، وقال له محتدّ النبرات :

لعنة الله عليك وعلى فنك !

وجنح إلى زوجته يقول :

انظرى واعجبى . . . ذلك ما كان ينتظرنا ! . . . هذا « حسن » يتباهى أمامنا بأنه أحسنَ التمثيل ، وأصبح فى زمرة المشخصين !

ورددت الزوجة قولها فى تساؤل :

المشخصين ؟ . . . المشخصين ؟

فأجابها الزوج يقول :

أجل . . . هؤلاء الرقعاء الخلعاء الفاسدون . . .

فغضب « حسن » للفن ، وقال يحتج :

ماذا تقول يا عمى ؟ هذه إهانة !

— وما الممثل إذن يا « حسن » ؟ أليس هو ذلك الذى يكحل عينيه ، ويصبغ بالأحمر والأبيض وجهه ، ويبدو فى سراويل ضيقة ، يتعوّج ويتراقص ؟ !

وضربت الزوجة صدرها بيدها تقول :

يا للعار يا « حسن » . . . يا لها من خيبة لم تكن لنا على بال ! . . . أترضى لنفسك أن تكون كذلك ؟ .

وغصّ الفتى بريقه ، وأرتج عليه ، فاندفع عمه يقول لزوجه :

أتحسبين يا « أم خليل » أنه ما زال لى ابن أخٍ اسمه « حسن عبد الكريم » ؟ . . . لا والله ! . . . عوّضنى الله عنه . . . عوّضنى الله عنك يا « حسن » . . . أردتَ

أن تفضحنا فى آخر الزمن . . . اذهب فافعل ما تريد ، لا سدّد الله خطاك ! .

ونهض يبصق ، كأنما يتقزّز ، واتجه إلى المطهرة يغسل يديه . . .

وأقبلت « أم خليل » على الفتى تعاتبه قائلةً له :

أكذلك تُسخط عليك عملك ؟ قم إليه فقبِّل رأسه ، واستغفره وقل له : إنك تبتَ ورجعتَ ، ودع عنك هذا الهذَر الذى لا ينفعك .

فألقى عليها الفتى نظرةً شزراء ، وقال :

إنكِ أنت وعمى لم تفهمانى ، ولن تفهمانى ، فاتركانى وشأنى ، وسوف تدركان خطأكما ، وتعرفان حقيقة أمرى ، حين يتسامع الناس بى عما قريب . . .

٦

صدَرَ الفتى عن المائدة يلوذ بحجرته . . . وما عتّم أن شمَّر عن ساعديه ، وحملق بعينيه ، وأنشأ يجمع ما تفرق

من ثيابه وأشيائه ، وضم بعضها إلى بعض فى صرة ، ثم تفقّد عصاه المسرحية الطويلة ، التى كان يدعوها عصا « أوديب » ، حتى إذا وجدها علّق بها صرة المتاع ، وحملها على كتفه فى عزة وإصرار .

ولبث فى موقفه لحظة يتسمع ، وإذ وثق بأن عمه وزوجته قد أفضيا إلى حجرتهما يتقيّلان ، فتح الباب فى محاذرة ومساترة ، ومثّل يلقى على حجرته آخر نظرة ، وهو يهمهم بقوله :

وداعاً يا حجرتى الحبيبة ... وداعاً يا مهبط وحيى ومستودع أسرارى . . . وداعاً يا منبع عبقريتى ومرتع أحلامى . . . وداعاً أيها المنزل الذى تلألأت فيه أنوار طفولتى !

واشتد وجيب قلبه ، واخشوشن صوته ، وهو يتابع مناجاته :

وأنت يا عماه ... يا من وقفت حجر عثرة فى طريق آمالى ، لك منى صفح الكرام ، فنم فى سلام . . . وأنت يا زوج عمى ، يا من كنت طيبة القلب ، على الرغم من جهالتك وغباوتك ، سأذكر لك معروفك ، مهما يكن من إساءتك . . . وداعاً لكما . . . وداعاً لكل شىء هنا ، وداعاً يا له من وداع !

وأخذته نوبة الإنشاد ، فاستطرد يقول :

وداعاً للطبل الذى يشب حرارة النفس ، بما له من دوىّ عظيم . . . وداعاً للمزمار الذى يشجو القلب ، بما له من صفير رخيم . . . وداعاً يا له من وداع !

ومشى فى الردهة مشية « عطيل » وانطلق إلى الطريق لا يلوى على شىء ، فى حين كان عمه يتقلب مذعوراً وهو يوقظ زوجته ليسألها :

ألم تسمعى أحداً يصيح فى البيت ؟

فنفضت المرأة عن عينيها غبار النوم ، وقالت له :

ربما كنت حالماً يا « أبا خليل » !

٧

لم يدع « حسن » مسرحاً إلا طرقه ، يعرض نفسه عليه ، وانتهى به المطاف إلى فرقة هزلية فى أطراف المدينة كانت تأجُره على عمله فيها بالمياومة ، وكان أجره ضئيلاً لا يكاد يكفيه ، ولكنه صبر عليه ، ورضى به ، وبعد

أسبوعين استدعاه مدير الفرقة ليقول له :

طالما أفهمناك أن المواقف التى تسند إليك مواقف مزح ومهازلة ، ولكنك تأبى إلا أن تؤديها جدية الطابع ، تحمل مسحة المأساة . . .

— إنى أستوحى روح الفن ، وأؤدى عملى كما يجب أن يؤدى . . .

فأنشأ مدير الفرقة يحاوره ليصرفه عن عناده ، ولكن الفتى أصر على رأيه ، فلم يملك الرجل إلا أن يقول :

إن روح فنّك لا تلائم جو الفرقة يا أستاذ . . . فمعذرةً !

— هذا صحيح !

— اتفقنا . . .

— لى اقتراح أعرضه عليك . . .

— إنى أرحب بكل ما تعرض . . .

— شكراً يا سيدى . . . منذ التحاقى بفرقتك وأنا مشغول بإعداد خطة لترقية فن التمثيل .

— هل فرغتَ من إعدادها ؟

– على وشك أن أفرغ . . .

– وهل لى أن أعرف خطتك ؟

– أن تأذن لى باتخاذ مسرحك واستخدام فرقتك ، لتمثيل رواية جديدة من المسرحيات الفنية الرفيعة ، مرة كل أسبوع ، على أن يكون الربح بيننا مناصفة .

فابتسم مدير الفرقة ابتسامة عريضة ، وحدق إلى الفتى يقول له :

هذه خطة عظيمة يا أستاذ ! ولكنها تحتاج إلى بحث .

– لديك من الوقت فسحة ، ولكن لا تنس المثل الطيب : خير البر عاجله .

وصمت المدير يتلاعب بقلمه ، ثم رفع رأسه قائلاً :

أين كنت يا « أبا على » قبل أن تلتحق بفرقتى ؟

كنت أعمل فى حانوت عمى . . .

– أى حانوت ؟ !

– حانوت بدّال . . .

– ولماذا عدلت عن التجارة إلى التمثيل ؟

– لأنى أحببته ، وأريد أن أعمل على ترقيته . . .

ـ أتحب أن أنصح لك يا بنى ؟

ـ وبماذا تنصح لى ؟

ـ أن تعود إلى حانوت عمك ، فتريح نفسك من هذا العناء .

ـ لقد وهبت الفنّ نفسى ، ولن أحُول عنه .

ـ أمصرّ أنت ؟

ـ كل الإصرار . . .

ـ أريد أن أسألك ، فلا تضق بى . . .

ـ سل ما بدا لك . . .

ـ ألم يخطر لك مرة أنك على شىء من الهوس ؟

وبهت الفتى ، وانفرجت شفتاه بجمجم :

ـ هوس ؟ . . . أى هوس ؟ !

ـ خير لك يا بنى أن تعود إلى عملك الذى كنت فيه ، فحرام أن تسىء إلى نفسك .

ـ لم يبق عندى شك فى أن الحاسدين قد دسوا لى عندك ، صارحْنى بالحقيقة .

ـ أى دسيسة يا بنى ؟ وأى حاسدين ؟ ما دمت

لا تقبل النصح فلا شأن لى بك ! . . . إن كانت لك بقية من أجر فاذهب إلى الكاتب لتطلبها منه . خذها وتوكل . هذا آخر أيامك فى الفرقة . . . وكفى !

— أنت بلا ريب تخشى منافستى إياك ! يا للضعف ! ولكنى أقسم لك إنى ما أردت بك الضر ، بل نويت لك الخير .

فنهض الرجل يدفع بالفتى إلى الباب ، وهو يصيح بالكاتب أن يؤدى له حسابه ، ويريه ظهر الطريق !

٨

عمل « حسن » فى شتى دور التمثيل ، على تفاوت الدرجات ، تتقاذف به الفرق والأجواق ، ولكنه لم يستقر به المقام فى فرقة ولا جوق . فهو لا يسلّم حتى يودّع ، إذ كان دائب التشكّى ، موصول التسخط ، غير قانع بما يسند إليه من مواقف ، يبغى أن توكل إليه مقامات البطولة فى المسرحيات ، مؤكداً كفايته للاضطلاع بها

على خير ما يرام . وهو إلى ذلك يجاوز طوره فى معاملة الزملة من الممثلين ، يتطوع لهم بالملاحظة ، ويتطفل عليهم بالنقد ، وينعى عليهم ألوان القصور والتقصير . فأما الروايات فإنها تظفر من تجريحه وتشهيره بالنصيب الأوفر ، وتراه يجترئ على أن يدخل عليها صنوف التبديل والتعديل ، وإن كره المؤلفون . وأما إدارة المسرح فهى مشغلة لسانه ومضغة فمه ، يتهمها بسوء التصرف ، ويرميها بالعجز والجهل والخمول ، فلا غرو أن توصد أبواب المسارح دونه ، وأن يفقد فيها من ينصره على أمره .

وبعد لأى ضمته إليها جوقة جوّالة فى الأقاليم ، ولم يجد الفتى بداً من أن يرضى بالعمل معها إلى حين ، وأن يذعن لما يُسند إليه من مواقف لا تلائم كفايته ، ولا تُروى غلّته .

وانكسرت نفسه ، فآثر الانطواء ، ولازم الصمت ، وحالف العبوس ، لا يخالط زُملته ، ولا يألف أحداً من الناس .

وبينما هو ذات يوم ، وقد خلا إلى نفسه يتصفح

خططه وبرامجه التى يبنيها قصوراً فى الهواء ، إذْ أقبل عليه أحد رصفائه من ممثلى الجوقة ، يمازحه بقوله :

ما بالك يا أستاذ . . . تخلد إلى الوحدة والصمت ؟ لا بد أن يكون الحب قد تمكن من قلبك !

فشمخ « حسن » برأسه يقول :

الحب ؟ إنى لا أعرفه !

— كيف ذلك يا أستاذ وأنت فنّان ؟

— المرأة التى تستأهل حبى لم تخلق بعد ! . . .

لم يطل عهد الفتى بحياة الرزانة والسكون فى عمله ، فانتابته نزعات الإزراء والتعييب ، تثيره حرباً على أوضاع الجوقة فى التمثيل والإخراج ، وتوزيع المواقف على الأبطال ، فنشبت بينه وبين رئيس الجوقة مساجلة عنيفة أفضت بهما إلى مفاصلة وفراق .

ورجع الفتى أدراجه إلى « القاهرة » وقد أقسم بالأيمان المغلّظة أن يقاطع الفرق والجوقات التمثيلية ما عاش ، حتى يهيئ له الله من أمره سعة ، فينفذ خططه فى خدمة الفن ، وينفرد فيها بأمره ، لا معقب له من دونه .

وبرّت يمين الفتى ، فكان يتنكب عن دور المسارح ، لا تطؤها قدماه ، ويتجنب مجالس الممثلين ، لا يأنس منهم بأحد .

وربما ساقته المصادفات ، فمر بجمع منهم يتحدثون ، فلا يلبث أن يظن بهم الظنون ، ويقع فى روُعه أنهم يخوضون فى حديثه ، فإذا هو يرميهم بشواظ من عينين ملؤهما الكبرياء . . . ولو اتفق لأحد منهم أن يضحك ساعة مروره به ، لحسب أنه يسخر منه ، فيجيبه ببصقة تقرع الأرض ، ويمضى متعالى الهامة ، على وجهه سيماء الاشمئزاز .

بيد أنه على الرغم من هذا كله ، أبقى على مودته لصديقه « عبد الواحد » يجلس فى « قهوة الفن » معه أكبر وقته ، ويبثه ذات نفسه فى بعض أحيانه ، فإن لم يجده فى القهوة انفرد بمجلسه ، وأرسل فى عرض الشارع نظرهُ الشَّرود .

وطال التعطل بالفتى ، واشتدت به العسرة ، فتقشف فى عيشه كل التقشف ، ولم يقبل ما عرضه عليه صديقه

« عبد الواحد » من معونة ، حتى عضته الحاجة ، فانقطع عن « قهوة الفن » وأمضى وقته بين الشوارع والميادين ، فى تجوال مسئوم ، ينهكه السعى ، فيَوخى معزلا على حاشية الطريق ، ويجلس مفكراً فيما آلت إليه حاله من شِقْوة وتَعس ، فيزفر الزفرة الحرَّى من أعماق صدره وهو يقول :

صبر جميل . . . إنما طبعتْ الدنيا على معاندة الأحرار ، وإنما خلق الفنان لكى يكابد الحياة . . !

وطالت غيبته عن « قهوة الفن » . . . فمضى صديقه « عبد الواحد » يقتصّ أثرَه ، حتى اهتدى إليه صبح يوم قابعاً فى حجرته ، قد اتخذ منها محبساً عن طواعية ، وآلى ألا يبرحها فى ليل أو نهار ، وهو فى حالة من البؤس يلين لها جامد القلب . فقال له :

استمع لى أيها الصديق . . . لا بد أن تخلص من هذا المأزق الذى أنت فيه .

— وكيف ؟

— لقد وفقت إلى سبيل الخلاص ، وسعيت لك فتكلل مسعاى بالنجاح .

ـ أى سبيل تعنى ؟

ـ قصدت إلى عمك الشيخ « مبارك » وترضّيْتُه لك، فقبل منى ، وهو يرحب بعودتك إليه . . .

فانتفش « حسن » وقد هاج غضبه ، يقول :

أنت فعلت هذا يا « عبد الواحد » ؟ إنك حتى اليوم لا تعرفنى حق المعرفة !

ـ أتأنف أن تعود إلى عمك ؟

ـ كلَّ الأنفة !

ـ أتريد أن تقضى على نفسك فى هذا المحبس ؟

ـ الموت فى سبيل المبدإ والعقيدة حياة . . . والفناء من أجل الفن هو عين البقاء !

وجعل الفتى يوسع خطاه فى الحجرة ذهوباً وجيئةً عاقداً خلف ظهره يديه ، واستأنف « عبد الواحد » قوله :

ما ضرك أن تعود إلى عمك بعض الوقت ، حتى تستبين طريقك ، وتتخذ أهبتك ، لتحقيق ما تصبو إليه نفسك ؟

ـ أتسومنى أن أعتذر إلى عمى ؟ هيهات !

ـ لا يرغب إليك عمك فى اعتذار . . . فهو يرحب

بمقدمك ، دون قيد أو شرط . . .

وصمت الصديق لحظات ، ثم أنشأ يخافت بقوله :

عمك رهين مرض عضال ، وقد بلغ منه الهزال كل مبلغ ، وبدا عليه الشحوب أسوأ ما يبدو . . . وإنى من حاله على قلق !

فأنصت « حسن » لما يقوله صديقه كل الإنصات ، ولاح عليه الاهتمام بما سمع ، وتخلّجت خطاه فى سيره . . . فواصل « عبد الواحد » قوله :

ما أحوجه إليك فى مرضه ، وأنت ربيبه . . . وما أجدرك بثقته ، وأنت ابن أخيه . . . أجبنى ، علام عوّلت ؟

ـ دعنى أفكر . . .

ـ الأمر واضح لا يستوجب التفكير ، ولكن يستوجب الاعتزام والتصميم . . . امض معى إلى عمك . . .

ـ أما الآن فلا ، ولكنى سأمر بك فى « قهوة الفن » عصر اليوم ، وسأخبرك بما ينتهى إليه الرأى .

ـ سأنتظرك فلا تبطئ علىّ .

وفيما كان « عبد الواحد » موشكاً أن يغادر الحجرة ،

التفت إلى « حسن » يهمس فى أذنه :

لو حانت منيّة الشيخ « مبارك » ، لا قدّر الله ، وهو عليك غضبان ، لم يصبك من ميراثه كثيرٌ ولا قليل . . . فإنه مزمع أن ينزل لزوجته عن كل ما يملك . . . وأما إن رضى عنك ، فسيصبح للأمر وجه آخر !

فاهتز « حسن » على غير إرادة منه ، وغشيه الصمت هنيهة ، ثم انتبه صائحاً مغيظاً يقول :

أتظننى أطمع فى شىء ؟ هذه إهانة . . . هذه إهانة !

ــ معاذ الله أن أظن بك هذا الظن . . . إنما أردت أن أجلو لك الحقيقة ، لتكون من أمرك على بصيرة . . . أستودعك الله . . . إلى الملتقى فى « قهوة الفن » . . .

وانفتل « عبد الواحد » يلوّح بيده .

وطفق « حسن » يدور فى الحجرة بخطواته المتخالجة ، ورأسه ينوء بأفكار ثقال !

٩

لانت قناة الفتى « حسن » . . . فنزل عند رأى صديقه « عبد الواحد » ومضيا معا يلقيان الشيخ « مباركاً » . ولمح العم ابن أخيه مقبلاً عليه فهش له وبش ، وسرعان ما جعلا يتعانقان ويتباكيان ، وانكب الفتى على يد عمه يقبلها ويندّيها بالدمع مجتهداً فى إظهار الندم وطلب المغفرة ، متأنقاً فى تعبيره عما يكن لعمه من تجلّة وعرفان للجميل .

وعلى توالى الأيام بدا الفتى فى صبغة جديدة ، فهو يضطلع بعمله فى الحانوت ناشطاً جدّ مهتم ، وهو يؤدى الصلوات فى مواقيتها حاضرةً يحدوه تطامن وخشوع ، وهو يسكن إلى فراشه فى الهزيع الأول من الليل ، لا يتشوّف إلى السوامر والمساهر . . . هذا إلى أنه أكسب وجهه سيماء الرجولة والاستقامة ، وتجلّى وقور السمت ، ناضب الابتسام ، نزر الكلام . إذا أخذ فى حديث لم يتخلل قوله دعابة ، مصطنعاً حكمة الشيوخ ، وحنكة المجربين .

وكان عمه يرى ذلك كله منه ، فيدهش له أيما دهش ، ويقول محبور النفس : الهداية من الله !

وثقلت وطأة العلة على الرجل ، فأوثقته إلى فراشه لا يريمه ، ولم تبق عنده نهمة لمزاولة عمله ، أو الإشراف عليه . وظل يقضي أكبر يومه فى سبات لا يكاد يفيق منه ، فقلقت عليه زوجه « أم خليل » ، ولم تترك وسيلة إلا اتخذتها فى تطبيبه وعلاجه ، تدعو له الطبيب بعد الطبيب ، وتستوصف له العجائز فيما يعرفنه من أخلاط الأعشاب ، وتستخبر له الشيوخ فيما يستشفّونه من أسرار الغيب ، وتجلبهم إلى البيت يكتبون له ضروباً من التمائم والتعاويذ ، ويتلون على رأسه مختلف الرقى والتسابيح . وتقصد إلى ضرائح الأولياء تستشفع لرجلها وتتوسل ، باذلة سخىّ الصدقات ، ناذرة فى سبيل شفائه ألوان النذور .

ولكن الشيخ « مباركاً » كان على الرغم من ذلك كله تتناقص حيويته وقتاً بعد وقت ، كما يتناقص الضوء من ذبالة القنديل إذا نضب فيه الزيت . فيشتد بزوجه القلق ، وتمعن فى رعايةٍ وتعهدٍ ، على حين يقف الفتى من

هذه المرائى موقف الصامت المهموم ، يأسره تفكير غلاّب .

واستيقظ الجيران بكرة يوم ، وقد أفزعتهم صرخات لاهفة تنبعث من بيت الشيخ « مبارك » فقطنوا لما حدث ، وتأهبوا للقدوم يستجلون الخبر ، وما هى إلا أن برز « حسن » من حجرته فى ذهول ، فاستقبلته زوج عمه معولة تندب ، وأمسكت به تروى له فاجعة الصباح ، فألفى الفتى نفسه ينتحب ، وما تمالك أن اندفع يلطم وجهه ، ولما هادنته نوبة النحيب استبانت له زوج عمه ملقاةً على الأرض قد أدركها إغماء ، فأسرع إلى الماء ينضح به وجهها حتى أفاقت مخنوقة الصوت ، مهزومة الأوصال .

وتقاطر النساء والرجال على البيت يؤدون واجب المواساة ، ويعرضون صنوف العون فى مثل هذه الحال ، واستجدى الفتى عينيه فضلة من دمع يذرفها فى استقبال المعزّين ، فاستعصت عليه عيناه . . . فعجل فى غفلة من الناس إلى حجرته ، ومثل أمام المرآة فى حنق ، وما عتّم أن ثار على نفسه ، فأنحى على وجهه يخمشه ، وعلى شعره ينفشه ، وعلى عينيه يكاد يدميهما بكلتا يديه ، ولمح عن كثب

حُق الدهان ، فجعل يدلك به خديه وجفنيه ، ثم وقف يتأمل خياله فى المرآة ، وتهيأ للخروج من حجرته ، وقد توضّحت فيه سحنة « أوديب » فى خاتمة مسرحيته ، بعد أن تخزقت عيناه ، وشاه محيّاه ! . . .

وفتح الفتى باب الحجرة ، وهو يزعق ما وسعه أن يزعق :

واحسرتاه عليك يا عماه !

فأسرع إليه بعض من حضر يسكنون من روعه ، ويقولون له :

تجلد يا « حسن » . . . كن رجلاً واصبر ، فإنّ الصبر شيمة الرجال . . .

وكأنما ألهب هذا القول من حماسته ، فتابع صياحه يقول :

دعونى لأتملّى وجهه الصبيح . . . دعونى لأطبع قبلة الوداع على جبينه الألاّق !

واندفع صوب الحجرة التى سُجّى فيها عمه ، ومن خلفه جمع يحاولون أن يردوه ، واقتحم الحجرة كالسهم

المارق ، فلمح جسمان الفقيد ، عليه ملاءة بيضاء تكسوه ، وإذا هو تعروه رجفة ، وإذا وجهه تعلوه صُفرة ، وإذا شفتاه تتشنجان فلا تنفرجان عن صوت ، وإذا ساقاه تميدان به ، فيخر على الأرض .

واتخذت الأهبة لسير الجنازة ، فأسفر النعش ، تتقدمه عصبة من المنشدين ، يوحّدون الحيّ الذى لا يموت ، ويتلو النعش جماعة المشيعين من الرجال ، وراءهم صفوف من النساء خرجن يجاملن صاحبتهن « أم خليل » فى المشهد العصيب .

وكان « حسن » يمشى فى الصف الأول ، محنيّ الرأس ، لا يجسر على أن يرفع بصره إلى النعش ، ولا تطاوعه مآقيه على أن يسكب عبرة تراها من حوله العيون .

وواصل سيره ، واجم القسمات ، تنتابه قشعريرة تقض كيانه ، إذ يقع فى وهمه أن عمه يطل عليه من النعش ليبصق على وجهه ، وليقول له :

عليك اللعنة يا قليل الوفاء !

وطال الطريق بالفتى ، وشقت عليه الخطا ، فجعل

يقتلع قدميه اقتلاعاً ، كأنما أصبحتا مشلولتين لا حسّ فيهما ولا حراك .

وبلغ النعش غاية المطاف ، ووقف « حسن » على شفير القبر ، مُخشَّب الجسد ، لا ينبس ، وهو يرقب جسمان عمه إذ يُدلونه فى تؤدة وحذر . . . وبغتة ثارت عليه مشاعره ، فراح يلطم وجهه ، ويضرب رأسه ، ويجذب شعره ، ويرسل من حلقه صيحات مخبول .

وأمضاها ليلةً ليلاء ، ضائق الصدر ، مشبوب الهواجس ، تنوشه أحلام موحشة راعبة ، إذ يتراءى له شبح عمه ، مطلاً عليه من نعشه الكئيب ، ملوحاً له بيده المعروقة ، باصقاً على وجهه فى حنق وازدراء .

ومرت بالفتى أيام يكابد هذه المحنة العسراء من هواجس اليقظة ، وأشباح المنام ، يخزه التفكير فى أمره أشدّ الوخز ، ويملأ أقطار نفسه من فزع وقلق وتحيّر . ولكن المحنة أخذت تنجاب عنه شيئاً بعد شىء ، حتى عاودته طمأنينته ، وراجعته الثقة بنفسه ، فكان فيما بعد يعجب من شأنه : كيف كان وجدانه مسرحاً لتلك

الأزمة المستحكمة التى كادت تقلب أوضاع عيشه ، وتقوض صرح آماله ؟ !

١٠

قام الفتى مقام عمه الراحل فى الإشراف على الحانوت ، وأبقى الغلام المسمى « يوسف » يزاول البيع فيه ، ويصرّف شئونه بإرشاد منه .

وكان « حسن » قد أهمل على أثر وفاة عمه أن يحلق لحيته وشاربه ، فلما وقف أمام المرآة يريد أن يُعمل فيها الموسَى ، لبث مليًّا يتوسم وجهه ، ثم أدبر عن المرآة ، يعفى لحيته وشاربه ، لا يتحيف منهما ولا يمسهما بأذى . . . وظل يراقب لحيته وهى تربو ، وفى نفسه شغف بأن يراها قد استدارت على عارضيه ، فينانةً تزدهر . . . وشدّ ما ساءه أن تظهر ضعيفةَ النمو ، متفاوتة المنابت ، بها جوانب جرداء ، وليس عليها مهابة اللحى الجليلة التى تبهر العيون .

وبينما هو مكتئب يوماً يفكر فى هذه اللحية العصيّة ،

إذ انفتح له وجه من التدبير فى هذا الشأن ، فنهض بغتة إلى صندوق أدوات التخفى المسرحى ، يجتلب خصلات من شعر ، وقارورة ملئت من صمغ ؛ وحدق إلى المرآة يغرس فى أديم وجهه شعرات تتسق بها لحيته ، حتى لا يكون فيها من تفاوت .

وفى يومه ذاك ، خرج إلى الطريق يحمل صرة كبيرة ، قاصداً حانوت خياط غير بعيد ، فبسط أمامه الصرة بما حوت من ثياب عمه ، ورغب إليه فى أن يعمل فيها يد التنسيق والإصلاح ، حتى تكون على قدّه ، كأنما فصّلت له ...

وتجلى « حسن » ضحوة يوم فى زيه الجديد . . . زى الوجهاء من الشيوخ . . . على رأسه عمامة مهيبة ، وعلى منكبيه جبة زرقاء ، تنسدل على جسده ، وتنشق عند صدره ، فيشرق من تحتها قباء أصفر فاقع لونه . وفى قدميه مركوب أحمر يلتمع فى وهج الشمس ، ومن كفه تتدلى سبحة طويلة ينقّل بين إصبعيه حباتها الغلاظ ، ونظراته تتسرب خفية على الطريق يمنةً ويسرةً ، حتى

إذا مر بأحد يعرفه ، رفع إليه بالتحية يده ، وهو يسبل جفنيه . . .

وجاءه صديقه « عبد الواحد » فى الحانوت يزوره ، فلما رآه فى بزته الجديدة كاد يغلبه الضحك ، ولكنه أمسك . . . وبعد أن استقر بهما الجلوس ، التفت « عبد الواحد » إلى صاحبه يقول له :

أراك قد غيّرت زيك !

فسكت « حسن » هنيهةً ، وهو مطرق ، يراعى سبحته فى يده ، ثم رفع رأسه عنها يقول :

هذا الزى أوفق الأزياء لما أنا فيه من حياة جديدة . . . لقد هانت الدنيا فى عينى ، إذْ بلوت ما فيها من خدعة ونفاق ، وإنى الآن زاهد فى كل شىء ، أبغى أن أتفرغ للعبادة ، أروى غلتى من فيض نور الله .

— والتمثيل يا بطل ؟ !

فرمقه « حسن » بالنظر الشزْر ، وهو يقول :

التمثيل ؟ ماذا تقصد ؟ أتهزأ بى يا « عبد الواحد » ؟

— معاذَ الله يا صديقى . . . ولكنّى أسألك عن جذْوةِ

الفن التى كانت تتقد بين جوانحك . . . هل خبتْ وصارت إلى رماد ؟

— هذا سر يعلمه الله ، ويفعل الله ما يريد . . . بربّك لا تسألنى فى مثل هذا بعد !

واستأنف « حسن » تسبيحاته ، وصاحبه بجانبه يعجب من أمره ، وبعد لحظات قال « حسن » :

سأقيم فى البيت حفلةَ ذكر هذه العشية ، وإنى داعيك إليها ، فهل تحب أن تحضر ؟

— سأجيب دعوتك شاكراً لك . . . وهل أقصر فى حضور حفلة ذِكْرٍ مباركة ؟

— نلتقى إذن فى البيت بعد صلاة العشاء . . .

— ستجدنى حاضراً . . .

وما إن دجا الليل ، حتى ضج صحن الدار بأخلاط من الناس ، أكثرهم الطفيليون وشيوخ الجنائز ، ومن يتشمّمون الولائم والمحافل كالفراش المبثوث ؛ فانبسط الحصير ، وامتدت عليه الموائد ، تتوسطها قصاعُ الثريد ، مكللة بأفلاذ اللحم . وسرعان ما تعاقبت الأيدى ، تسعف الحلوق

المنهومة ، وقد تبارت الألسن تفتنّ فى الثناء المستطاب على رب البيت ، داعيةً له بطول العمر ودوام البركة والخير .

ونزل « حسن » إلى الجمع يترنح تحت عمامة ضخمة ، ويهز فى يده سبحة كبيرة ، ومشى بين الموائد يتفقد الملتفين حول القصاع ، وينثر عليهم بسمات هادئةً فى ألفةٍ وإيناس .

ولما فرغ الحشْد من الطعام ، أو على الأصح لما فرغتْ من طعامها القصاع ، أنشأ « حسن » يدس العطايا والمنح فى أيدى العفاة ، ويهبُ لروح عمه ما أعد الله لمثل هذه الصالحات من مثوبة وجزاء .

وتداعَى الناس إلى صلاة العشاء ، وتراصفت الصفوف ، ونودى « حسن » ليؤم المصلين ، فتقدم فى توقّر وتخشع يكبر الله للصلاة .

ولما انعقدت حلقة الذكر ، تصدَّرها « حسن » يفتتحها بالأناشيد ، ودب الحماس فى عروقه ، فترك الإنشادَ لغيره ، وتناول هراوةً غليظة يدق بها الأرض ، دقات تتعين بها المقاطع ، كأنه على رأس جوقة موسيقية ضابط إيقاع .

وكلما حمى الإنشاد والترديد ، توالت دقات الهراوة واشتدت ، فتتطوح أعناق الذاكرين ذاتَ اليمين وذات الشمال ، وتطول قاماتهم وتقصر ، وتميل خصورهم حتى توشك أن تتقصف ، وهم يجأرون :

الله حيّ ! . . . الله حيّ !

وبدا « حسن » مسحوراً بما يرى وما يسمع ، واستغرقته النشوة كل الاستغراق ، فجعل يتلعّب بقامته أيما تلعّب ، وينتفض برأسه سريعَ الانتفاض ، وحوايا عمامته ينحل منها النظام ، فتسترسل على وجهه تخفيه . وما كاد الإنشاد يبلغ مداه حتى سقط « حسن » فاقد الوعى .

١١

واستطاب الشاب حياة التعبّد والتهجد والصلاح . فأكثر من محافل الذكر يعقدها فى بيته ، وأنس بالمساجد وضرائح الأولياء ، يقضى فيها جُل وقته ، وحرص على إقامة الولائم ، وتوزيع الصدقات بلا حساب . فذاع له

صيت ، وتهافت عليه شيعة وأتباع .

وأرغل الشاب فى نزعته الدينية ، يتكثر من الصلاة ، ويزداد من التسبيح ، وقلبه مطمئن بذلك الإيمان الذى يغمره ، فيُطَهر نفسه من أدران الفساد . . .

وكان يتعقب مجالس الفقهاء والوعاظ ، يتزود من أحكام الشرع ، ويتقصّص أخبار السالفين من أهل الزهد والتقوى . فإذا خلا إلى نفسه عكف على القرآن يرتله ، ملتمساً فيه شفاء الروح .

وتحمس الشاب فى تديّنه ، فجعلت نفسه تتجلى له له بإشراقات يطول فيها توجّده ويشتد هيمانه ، وكأنما عز عليه أن يستأثر من دون عامة الناس بهذا الصفاء الروحى ، فهفا إلى أن يشركه فى ذلك جمع الغافلين من عباد الله ، وواتاه شعور قوى بأن الله قد اصطفاه لعمل عظيم .

ونودى للصلاة من يوم الجمعة ، فعجل الشاب إلى المسجد يتمتم بالأذكار والتسابيح . . .

وبينا هو فى المسجد ينصت إلى الإمام يلقى خطبته ، إذ أحس بنزعات فى صدره تضطرم ، وصدره بها

يكاد يتفجر ، فنهض من فوره يتخطى الصفوف وهو ذاهل عما حوله ، لا يبالى نعىّ الناس عليه ، واستنكارهم له ، مطلقاً من حنجرته صوتاً أجش يقول :

أفسحوا لى طريق ، أبلغ رسالتى !

وبلغ المنبر ، وقد جاوزه الخطيب إلى المحراب يتأهب لإقامة الصلاة الجامعة ، فاقتحم « حسن » باب المنبر يرتقى درجاته ، وصاح مهتاج النفس ، كأنما به مس :

يا أيها الناس . . . اسمعوا ما أقول ، أهدكم سواء السبيل . . .

واشرأب الناس يعجبون من هذا القزم الأشوه ، وهو يترنح تحت عمامة حمراء تثقل هامته ، ويلوح بكلتا يديه كأنهما سوطان يضربان الفضاء ، متابعاً قوله :

إنى فى دعوتى إليكم مسيَّر لا مخير . . . لقد ألهمنى الله أن أدلكم على الحق ، وأتجافى بكم عن الضلال . . . فصدقونى إن كنتم مؤمنين !

فتعالت همهمة الناس ، يتفاوضون فى شأن هذا الشاب الذى قام إلى المنبر يشغل الناس عن أداء الجمعة فى وقتها

المعلوم . . . وصاح من الجمع رجل يقول :

ألا تنحون عن المنبر هذا المأفون ؟ !

واندفع « حسن » يخطب قائلاً :

طوبى لمن تبغنى ، وويل لمن أعرض عنى !

فلما سمع ذلك إمام المسجد ، قال فى صوت هادئ رزين :

هذا لغو حرام فى وقت الصلاة ، فأسكتوا صاحبه ، وخذوا فى صلاتكم يرحمكم الله !

فبرز من الصف الأول عملاق جسيم يتوخى المنبر فى رفق ، وأشار بيده إلى « حسن » أن ينزل ، فلم يعبأ به ، فارتقى إليه المنبر وثباً ، وأخذ بقفاه يجره ، ثم قذف به على باب المسجد عنوة ، وتركه مذهولاً عما جرى له . . . فوقف يفرك عينيه مخبول النظرات ، كأنه يفيق من حلم . وألفى لمة من صبية الطريق يلتفون حواليه ، فما أسرع أن اكفهر وجهه ، إذ أدرك ما حل به ، فجعل يتمتم فى يأس :

حتى أنتم أيها المصلون . . . فيكم الحساد المنافقون ؟ !

ومضى يسوق قدميه إلى البيت ، يلوذ بخلوته فيه .

scapo-gattine

وكان لهذا الحادث فى نفسه أسوأ الأثر ، فاعتراه انقباض وسهوم ، وتراخى عن فرائض الصلاة ، وأهمل عمامته تتضاءل على رأسه ، وفطن إلى أن سبحته تشغل يده على غير طائل ، وتعطله عن أداء عمله ، فأخلى منها يده ؛ ولم يعد يغشى مجالس الفقهاء والوعاظ ، وأبطل ما كان يقيمه من الولائم ، ويعقده من حلقات الذكر . . . وبدا فى الحانوت متكمشاً فى ثيابه ، تسلمه همومه إلى تفكير عميق .

ويوماً قدم عليه صديقه « عبد الواحد » يبادره بقوله :

أجدك مهموماً . . . فما بك ؟

— وهل فى الحياة ما يسر ؟

— ماذا يضيرك ، وأنت من عيشك فى رخاء ويسر ، والحانوت بحمد الله وافر السلع ، رابح التجارة ؟ !

— أحسبت المال كل ما أعنى ؟ إن روحى تصبو إلى ما هو أسمى من رخاء الحال ، ووفرة المال .

— أوضح لى ما تقصد . . .

— حتى أنت يا « عبد الواحد » لا تفهمنى ؟ اعلم

يا صديقى أنى لم أخلق فى هذه الدنيا لأبيع الجبن والزيتون ؛ فلقد وكلت إلىّ إرادة الله مهمة علىّ أن أضطلع بها لهذه الأمة الضالة الظالمة !

ـ أظنها مهمة فنية يا « أبا علىّ » . . .

ـ إنها مهمة جليلة يزخر بها قلبى ، ولا بد أن أفنى فى سبيلها لا بد . . . .

ـ عليك أن تكافح . . . والله ناصرك .

ـ إنى مكافح ما حييت ، متوكل على الله مسعاى ، وسيعلم الحساد المنافقون أى منقلب ينقلبون .

وطال به الصمت ، مطرقاً برأسه ، يغشى سحنته عبوس واكتئاب .

فأقبل عليه صاحبه فى تلطف به ، وإشفاق عليه ، يقول له :

هل لك فى نزهة نروّح بها عن النفس ؟

ـ إلى أين تريد أن أمضى معك ؟

ـ إلى « قهوة الفن » . . .

ـ لا أحب أن ألتقى هنالك بأولئك الحساد الذين يكيدون لى .

— ما لنا ولهم ؟

وأخذ « عبد الواحد » بيد صديقه « حسن » يتهادى به إلى الطريق ، حتى انتهت بهما الخطا إلى باب « قهوة الفن » . . .

وما إن لاح « حسن » لرواد القهوة حتى سارع إليه بعضهم يحتفون بمقدمه ، ويسألونه عن سر غيبته ، وما هى إلا أن اندمج فى حلقة من الصحاب يتحاورون فى شئون المسرح ، ويتنازعون الحديث فيما يعترى الفن من تدهور وانحدار . . .

وألفى « حسن » نفسه فى الجمع ، يلقى خطاباً رائع اللهجة يشيد فيه برسالة الفن الرفيع ، ويتغنى بواجب الفنان الأصيل ، ويدعو إلى توطيد قواعد التمثيل فى هذا البلد الأمين . . . فقوطع الخطاب الحماسى بالتصايح والتهلل والتصفيق ، وقال له أحدهم وهو يهز يديه فى حمية وغيرة :

أنت لها . . . أنت لها يا « أبا على » . . . أنت لها دون غيرك . . . فلتتقدم ، ولتشق لنا الطريق !

وأمضى الفتى سهرة الليل فى أحد المسارح يشهد طائفة

من الممثلين فى رواية عنيفة هى مأساة فاجعة . . . ورجع أدراجه إلى البيت ، تصطرع فى رأسه آمال وأهداف !

وبعد يومين اثنين زاره صديقه « عبد الواحد » فألفاه قد انتبذ من الحانوت ركناً ينكمش فيه ، وعيناه تتيه نظراتهما فى آفاق فساح . . . فألقى عليه التحية ، واتخذ مجلسه بجواره يتأمله ، ثم مال على أذنه يسأله :

ماذا يشغل بالك يا « أبا على » ؟

فأجابه « حسن » مختلج الشفتين ، مرعش اليدين ، يخافت بقوله :

سأقص عليك رؤيا . . . رؤيا ظلت تطرقنى فى المنام ليلتين متواليتين . . . رؤيا ناصعة كفلق الصبح ، أشبه بالحقيقة الواقعة . . . لقد وجدت يمينى تقبض على معول ضخم ، أهدم به البيت والحانوت معاً ، ومن ورائى كلاب تنبحنى ، وتهمّ بى لتمزق جسدى ، وأنا ماض فى الهدم والتقويض ، مستهزئ بنباح الكلاب ، غير مبال بما تهم به من افتراس . . . وكنت أثناء ذلك أرتدى لبوس « هملت » .

— لبوس « هملت » ؟ !

— يحق لك أن تعجب أيها الصديق ، ولكنها الحقيقة أخبرك بها ، أو هى الرؤيا أقصها عليك . . .

— ثم ماذا يا « حسن » . . . ؟

— وكنت أرانى وأنا أهدم البيت والحانوت بيمينى ، أشيد بيدى اليسرى صرحاً عظيما لم أتبين شكله على وجه التحديد ، إذ كانت تنبعث منه أنوار تخطف الأبصار . . . وإذا أنا أجد « قيس بن الملوّح » — مجنون « ليلى » — تنشق عنه الأنقاض ، فيعانقنى أحرّ عناق . . . وهو يقول لى فى صوت رقيق : « تقدم . . . تقدم . . . وإلى الأمام . . . إلى الأمام . . . لا تهن ، ولا تجزع ! . . . » . وإذا الظلمات الحوالك ، والأنوار السواطع ، تتعاقب فى ضجة وهتاف . . . فما قولك يا صديقى فى رؤياى ؟

— رؤيا عظيمة ولا شك . . . ولكن ما تعبيرها يا « أبا علىّ » ؟

— تعبيرها فى كلمتين قالهما لى « قيس » : « تقدم ، لا تجزع ! » . . .

١٢

لم تكن أضغاث أحلام أن يفقد « حسن » بيته وحانوته مع الأيام . . .

لقد عرضهما للبيع ، صفقة واحدة ، ولقد عقد الصفقة على غير تصعّب فى المساومة . . .

وكان حقّاً عليه — وقد تمّ له بيع البيت والحانوت — أن يحقّق أمنيته العزيزة . . أمنية الفن .

فعمل على تشييد مسرح من خشب فى الحىّ الحسينى ، منفقاً من سعة ، متعجلا كل التعجل . وكيف التوانى والمال بين يديه وافر ، والنار المقدسة بين جوانحه تتوقد ، والهاتف يصيح به :

تقدم . . . لا تجزع !

وأعلن الشاب نبأ تأليف فرقته ، وإقامة مسرحه ، فى إعلانات ملونة على الجدران ، فى مختلف الشوارع والمسالك والدروب . . .

وفى الصبيحة من كل يوم ، ينشط ماضياً إلى المسرح ، يرقب الأعمال ، ويشهد التجارب ، ويوصى بصنع الأستار والملابس والأثاث .

ما كان أشقه من جهد متعدد الجوانب والأنحاء . . . بيد أن « حسناً » ظل يسديه بسّام الثغر ، فى عزم ومضاء ، لا تدركه منه ملالة ولا سأم .

وقد جمع الشاب أعضاء فرقته من ناشئة الممثلين ، محترفين وهواة . . . بانياً عزمه على أن يخلق منهم خلقاً جديداً ، ينافس بهم الفنانين الأعلام ، ممن تزدان بهم المسارح والجوقات وجمعيات التمثيل .

فأما « عبد الواحد » فقد أسند إليه « حسن » منصب المدير الفنى للفرقة ، وأرصد له فى الحساب راتباً شهرياً لم يكن صاحبه يتوهم أنه يحصل عليه . وفوق ذلك أودعه مقداراً من المال لينفق منه على شئون الفرقة ، فصال « عبد الواحد » وجال ، وقام بعمله فى همة الأبطال !

وكان « حسن » يهلّ على المسرح ، متهادى المشية ، وقور الهيئة ، مترفع النظرات ، وفى يده عصاً ثمينة يشير

بها إلى ما حوله ، وإلى من حوله ، إشارات خواطف ، وهو يقول :

هذا المكتب ليس هنا موضعه . . . كريه ذلك المنظر ، فحطموا ألواحه . . . السكون . . . السكون . . . لا اعتراض لأحد على ما أقول . . . إلقاؤك أيها الولد غاية فى السوء . . . وأنت يا هذا فى أى مزبلة تعلمت التمثيل ؟ . . . اسمع يا « عبد الواحد » ، يجب أن يحضر النجار غداً ما طلبناه من الكراسىّ ، فإن تأخر بها عن الموعد فلتهشمها على رأسه . . . لا هوادة فى العمل ، ولا خلف فى المواعيد . . . أريد الإتقان فى كل شىء . . . إننا نعمل ، لا نلعب !

فلا يجيب « عبد الواحد » على ذلك كله إلا بقوله :

أمرك مطاع يا أستاذ . . .

ومتى جن الليل ، استدعى « حسن » مدير فرقته الفنى ، فأجلسه إلى جانبه ليملى عليه روايته التى اعتزم أن يفتتح بها الموسم التمثيلى العظيم لمسرحه الجديد .

وطالت ليالى التأليف ، تمضى فيها الساعات تلو الساعات ، والمؤلف يعيد ما بدأ ، ويزيد فيما أملى ، ولا

يفتأ يراجع الفصول ، للصقل والتنقيح ، فإذا استشعر أن صاحبه به سآمة ، وأنه ضائق بإملائه ، قال له :

صبرك يا « عبد الواحد » فإنما أريد أن تخرج الرواية محبوكة محكمة ، وإننا لا نضعها لتكون رواية ليلة أو رواية أسبوع . فلعمرك ليستمرنّ تمثيلها شهوراً بعد شهور . . . !

وكان « حسن » إذا جاس للتأليف والإملاء ، يستنزل الوحى ، ويستصفى القريحة ، تكمّش فى ثيابه على متكإ ، وبدا مقلقل الأوصال ، مضطرب الصمت ، يدخن لفافة التبغ ، ويحملق فى سقف الحجرة بعض الوقت ، ثم يقفز من المتكإ وقد ضاء وجهه ، وراح يدور فى الحجرة دورات ، وهو يقول :

أنتِ نور قلبى يا حياتى . . . نور قلبى أنتِ يا حياتى . . . يا حياتى نور قلبى أنت !

ولا يزال يكرر هذه الجمل ، يتمطق ويتشدّق ، ويخرج الحروف مخارج مختلفة ، مولياً التنغيم والترخيم . . . ثم يشافه « عبد الواحد » بقوله :

سر البلاغة فى مزج الكلمات وفى التأليف بينها حتى

تتشكّل فى جمل فنية . . . ما أصعب ذلك وما أشقه . . . وهل ثمة فارق بين الموسيقار يرتب النغمات لينسق منها اللحن ، وبين الكاتب يؤاخى بين الكلمات لينظم منها الجملة ؟ ! .

ثم يضع يده فى خاصرته ، ويعاود سيره ، يقول :

اكتب : « نور قلبى أنت يا حياتى » !

١٣

حلت الليلة الموعودة ، ليلة افتتاح التمثيل فى المسرح الجديد ، فتألقت ببابه الأضواء ، وازدحم فيه المتفرجون من عامة أهل الحىّ .

ودقت الساعة العاشرة ، وما برحت الستارة تخفى وراءها سر التمثيلية التى يعلو بها شأن الفن الرفيع . . .

وتمشت بين الصفوف همهمة التململ والضجر ، واستحالت الهمهمة تصفيقاً ومناداة برفع الستار .

وبرز « حسن » من جانب المنصة ، فى لبوس التمثيل ،

يمتشق سيفاً لامعاً تحت الأضواء ، وعلى رأسه عمامة ضخمة ترصعها اللآلئ المسرحية البراقة . وانحنى أمام الستارة للجمهور المتطلع ، فأسرعت الأكف تصفق لتحيته ، فاعتدل فى وقفته مشرق الجبين يقول :

سادتى الأفاضل . . . شكراً لكم على حفاوتكم بنا ، وتقديركم لنا ، وإقبالكم علينا ، هذا الإقبال المنقطع النظير . . . معذرة إليكم ، إذ يتأخر عرض الرواية فترة ، لضرورات فنية يقتضيها الأمر فى ليلة الافتتاح . . . فانتظروا خمس دقائق ، ينكشف لكم الستار .

فقام إليه صائح يسأله :

هل أنت « حسن أبو على » الممثل الخطير ؟

فانحنى عميد المسرح علامة الإيجاب ، وكانت انحناءته أرستقراطية أثارت موجة من التضاحك بين الناس .

فشمّر الصائح عن كميه ، وصفق يغنى بقوله :

« حسن أبو على سرق المعزى » !

فردّد جمع من النظارة أغنيته ، فجعل عميد المسرح يشير إليهم أن يمسكوا ، فلم يفعلوا ، فدخل من جانب

المنصة ، يتوارى خلف الستارة ، وهو يبرطم بقوله :

سفلة . . . أوغاد !

وألفى المنصة يسودها هرْج ومرج ، والممثلون مضطربون عليها ، لم يكملوا ارتداء الثياب ، واتخاذ الزينة ، ولم يتم لهم التشكل الملائم لموقف كل منهم فى الرواية . . . وما زال منظر الفصل الأول ناقصاً بعض المقومات ، فتغيّظ الشاب كل التغيّظ ، وأخذ يركل ما أمامه من أثاث ، وهو يقول :

تريدون أن تفضحونى يا كلاب ؟ !

وما هى إلا أن وقف وسط المنصة يشهر سيفه ، كما كان يصنع « دون كيشوت » . . . وصرخ قائلاً :

سيبدأ التمثيل بعد خمس دقائق . . . فليستعد كل منكم لأداء ما عليه ، ومن توانى فصلته من الفرقة فى الحال .

ودنا « حسن » من جانب المنصة ، يسارق النظر إلى الجمهور فى قاعة المسرح ، فألفى أحد المتفرجين يعتلى مقعده ، ويصيح بملء فيه :

نريد « بدرية » . . . نريد « بدرية » !

فارتجت القاعة بترديد هذه الجملة ، على إيقاع من التصفيق بالأكف ، والدق بالأقدام . . .

وكانت الفرقة قد أعلنت أن « بدرية » مطربة المشرقين ستظهر أول مرة فى بطانة من الموسيقيين الأفذاذ بين فصول الرواية . . .

وتقدم « عبد الواحد » وفى يده عصاه التى اتخذها لتكون دقاتها أذاناً بإزاحة الستار ، ومال على « حسن » يقول له :

ألا ترى أن نقدم « بدرية » تطرب الجمهور بإحدى الأغانى ، ريثما نعد العدة لبدء التمثيل ؟

فأزهرت عين عميد المسرح ، وحدق إلى مدير الفرقة الفنى ، قائلاً له :

كأنى بك تحرضنى على أن أحطم عصاك هذه على رأسك !

— الجمهور يطلب « بدرية » . . . وعلينا أن نستجيب له . . .

— فليطلبها الجمهور حتى الصباح . . . لا أبدأ روايتى

بغناء . . . هذه إهانة للفن الرفيع الذى أريد إحياءه !

— وماذا أنت صانع ؟

— سترى . . .

وخرج من مفرق الستارة ، يجر سيفه ، فهدأت الجلبة ، ووقف وقفة كبرياء يخاطب النظارة بقوله فى لهجة لا تخلو من خشونة :

سيداتى وسادتى . . . سألقى على مسامعكم « منولوجاً » تمثيلياً جديداً من تأليفى . . .

فانشق الناس بعضهم على بعض ، منهم من يستنكر ، فيعاود الجلبة والضجيج ، ومنهم من يسكت المشاغبين ويطلب إلى الجمهور الإنصات للإنشاد .

وانبرى « حسن » يلقى « المنولوج » فى ضجة القوم ، محاولا التغلب عليها بقوة الإلقاء والتمثيل . . .

وهادنه الجمهور لحظة يستمع إليه ، فازدادت حميته ، ولكنه ما لبث أن سَكَتْ سمعه شخرة انطلقت من حلق عابث ، فجمد الشاب فى مكانه كالمصعوق ، وشبّ صياح الجمهور به عوداً على بدء ، فصرخ فى ثورة :

أخرجوا السافل الدنىء . . . أخرجوا الدساس المأجور . . . أخرجوه من المسرح على الفور . . .

وذابت صرخته خلال الضجيج ، لم يسمع بها أحد ، ولكن الشاب خُيِّل إليه أن أمره قد نفذ ، فاعتدل يلقى « المنولوج » عالى الصوت ، وإذا هو يسمع من يقول فى لهجة النائح المعول :

يا مصيبتنا فيك يا « حسن أبو على » . . . الله يرحمك يا بطل الفن !

واختلط الشخير بالصفير ، وامتزجت الأغاريد بالنواح ، وأخذت الأقدام تدب فى الأرض ، وارتفع نداء القوم :

نريد « بدرية » . . . نريد « بدرية » !

وجنّ جنون عميد المسرح ، فزعق يقول :

أيها الأوغاد الرعاع . . . سأطردكم من مسرحى طرد الكلاب ! . . . لا بد أن فيكم مأجورين مدسوسين علىّ يريدون أن يفسدوا أمرى ، ويحبطوا عملى . . . تبًّا للحاقدين !

واستدار يفرُق الستارة ليدخل المنصة ، وهو شاهر سيفه ، وقد أزمع أن يستنجد برجال الشرطة ، لإخراج

المشاغبين من مسرحه ، فألفى الممثلين يتشاكسون ، ويشغب بعضهم على بعض ، فهجم عليهم يطوح فيهم سيفه ، فأعثره كرسى فى طريقه ، فسقط على وجهه لا يعى . . .

وأما المتفرجون ، فمنهم من خرجوا يتجمعون على شباك المسرح ليستردوا ما أدوا من نقود ، ومنهم من جعلوا يعبثون بالكراسى ؛ يقلبونها رأساً على عقب ، ويقذفون بها هنا وهنالك ، ومنهم من عمد إلى المصابيح يحطمها شر تحطيم . . .

واشتعلت النار فجأة ، فشاع الذعر بين القوم ، وتعالت أصوات الاستغاثة . . .

وما عتّم المسرح كله أن توهجت فيه ألسنة النار ، تُنذره بالدمار . . .

وتراءى « حسن » على مقربة من مسرحه المحترق ، مرعش الجسد ، زائغ النظر ، يتبين فى الناس « عبد الواحد » وينادیه بين آن وآن . ولكن المدير الفنى كان قد هرب ناجياً ببدنه ، وما لبث أن التقمته قارعة الطريق !

١٤

ذهبت ثروة « حسن » هباءً فى رماد مسرحه المحترق ، فاضطر أن يخلى الشقة الفسيحة التى كان يستأجرها ، بعد أن باع منزله ، وأن ينتقل مع زوج عمه الراحل إلى حجرة أرضية وضيعة فى حى « السيدة » .

ولبث رهين المحبسين : حجرته تضيق به ، وهمه يحاصره . ولازمته جهامة ، يقلّ من الكلام إذا دعت إليه حاجة ، وتتصعد مناجاته زفراتٍ وحسرات .

وحيناً تعروه الثورة على نفسه ، فيعض أنامله ، ويلكم الهواء بقبضته ، وهو يقول :

ويل للحاقدين الأنذال . . . لأسحقنّهم سحقاً !

وكانت زوج عمه الراحل تغادر الحجرة ؛ لتحتال فى طلب القوت ، متنقلة بين بيوت الخيِّرين ممن كانت لهم بها سابقة معرفة ، فيجودون عليها بما تيسر ، فتثوب إلى حجرتها تحمل الطعام لها ولربيبها قعيد الدار . . .

وفيما هى تجادله يوماً ، قالت له :

إلى متى تحبس نفسك ؟ كأنك استطبتَ الكسل . . . العمل لى ، والنوم لك !

فحملق فيها يقول :

أى نوم ؟ إنى أقضى الليل ساهراً ، وأنتِ بجانبى تغطين فى منامك !

— وفيم سهرك يا زين الشباب ؟

— أفكر فى خطط العمل ، وأرسم برامج التنفيذ .

— خيبة الله عليك ، وعلى خططك ، وبرامجك . . . ماذا أفدنا منها إلا ضياع التجارة ، وخراب البيت ؟ !

— لا يأس مع الحياة . . . سترين . . . إن لى إرادةً تفلق الصخر ، وتصهر الحديد . . .

وفى الغداة ، بارح « حسن » حجرته ، عاقداً عزمه على أن يبحث عن عمل ، يتكسب به ، وقضى نهاره يجوب المدينة ؛ يعرض نفسه على من يظن بهم أنهم معينوه على أمره ، فلا يظفر منهم بطائل . . .ورجع إلى حجرته ، مهدوم القوى ، يتضور من الجوع ، فلما سألته زوج عمه :

ماذا أجديت ؟

رفع يده ، علامة التهديد والوعيد ، وشفتاه المصفرتان تنفرجان عن قوله :

سوف أسحقهم . . . هؤلاء الحساد الأوغاد !

واستقبله الصباح ، وهو يستأنف سعيه ، فى مناكب الأرض ، ينقب عن عمل يقوته ، وعاد كما عاد أمس ، مخفق المسعى ، خاوى الوفاض ، أنامله بين أسنانه يقرضها فى ذلة وانكسار .

ومرّ به أسبوع ، على هذه الوتيرة ، ينفتل من حجرته مع انبثاق الفجر ، ويئوب إليها فى غيوب الشمس ، وقد شرّق فى الطرقات وغرّب ، لا يرجع من سيره إلا مكدوداً ، طاوى البطن ، ينوشه هم واضطراب .

وكان يتجافى عن لقاء من يعرفهم ؛ ممّن يعملون فى دور التمثيل ، أو يتصلون بها من قريبٍ أو بعيد . ولا سيما صاحبه « عبد الواحد » ، فإذا لمحه « حسن » عن كثب منه ، ازورّ عنه ، وزاغ فى معاطف الطريق .

وربما ضمته إحدى القهوات ، فى أطراف الحىّ ،

فيسترعى بهيئته وشارته أنظار بعض الجالسين ، فيقع فى وهمه أنهم راغبون فى التعرف إليه ، ولا يعتم أن يبذل لهم تحية متفضلة ، ويأخذ معهم فى الحديث عن نفسه ، يقص عليهم نبأ جهاده فى سبيل الفن ، ويطنب فى بيان خططه وبرامجه لترقية التمثيل . . . فإذا ملّ أحدهم ثرثرته ، ونأى عنه بجانبه ، رمقه « حسن » بنظرة حامية وهو يغمغم :

يا للزمن الغدور . . . من أين للبهائم أن تفهم عظمة الفن ، وتفقه حديثه ؟

وإذا أنِسَ به أحدهم ، فأجلسه معه ، وعرض عليه لفافة تبغ ، ودعى له الساقى ليوافيه بلون من ألوان الأشربة ، تطلقت أساريره ، وقال لجليسه :

سيدى . . . أنت رجل تقدّر الفن وأهله ، وإنى أشكر لك حفاوتك وتكريمك . . . ولكنى قبل أن أقبل ما عرضته علىّ ، أحب أن أسمعك « منولوجاً » من « المنولوجات » التمثيلية . . .

وسرعان ما يبدأ إنشاده فى حماسة واهتياج ، ثم يقبل على اللفافة والشراب إقبال ملهوف مَشوق !

١٥

بلغ الهزال « بأبى على » منتهاه . . .

واستبانت فيه العلة المشئومة ، علة ذات الرئة . . .

فاستبد به السعال ، يفتك بصدره فى أيام . . .

وعاده صديقه « عبد الواحد » وهو فى ساعته الحاسمة ، فأخذ « حسن » بيده ، يجمجم له :

لقد رسمت خطة دقيقة ، أريد أن أسرّها إليك . . .

ولكن حذار أن يعلم بها أحد . . . فالحاقدون كثير ، وهم يقفون لى بكل مَرْصد . . .

فحنا عليه صديقه ، يربّت كتفه ويقول :

عهد الله بينى وبينك ألا أفشى لك سرًّا يا أستاذ . . .

فسنحت على فم المريض ابتسامة شاحبة ، وقال متقطع النبرات :

أدن أذنك منى ... اسمع ... أريد أن أنشئ معهد . . . تمثيل !

ولم يكد يبلغ من جملته هذا المبلغ ، حتى أخذته غيبوبة الاحتضار ، تسدل على عينيه الستار . . .

رحلة صيف . . .

« بليغ أفندى » موظف حكومى ، يشهد له رؤساؤه ومرءوسوه بصفاء السريرة وطيبة القلب . وهو يؤدى عمله الموكول إليه على الوجه المرضى . وقد مرت به أعوام متواصلة لم ينل إجازة فى صيف أو فى شتاء ، ينصرف مصبحاً إلى مكتبه يزاول العمل ، ويقصد ممسياً إلى القهوة يتسلى ويتفرج ، ولا يزال دائراً فى هذه الحياة الراتبة بين القهوة والديوان .

وحل صيف اشتد فيه القيظ ، فاستشعر « بليغ أفندى » الحاجة إلى الراحة والاستجمام ، فقد نهكه العمل الموصول ، ولم يعد موفور الصحة كما كان . فعجل إلى رئيسه يعرض شكاته على استحياء ، ويستمنحه إجازة يرفه بها عن نفسه ، وما أسرع أن أجابه الرئيس إلى طلبته فى سماحة وارتياح .

وصدَر « بليغ أفندى » عن مكتب رئيسه ، وقد شاعت على وجهه طلاقة وبشر ، ولكنه ما عتم أن خلا إلى نفسه يسائلها والحيرة تنازعه :

أين يقضى هذه الإجازة ؟ أيجعلها مناصفة بين مسكنه

الكئيب الموحش ، لا جليس ولا أنيس ، وبين قهوتة المألوفه التى تماثل فى صخبها وضجتها سوق المزايدة ؟

لقد نصح له صديق يلهج بالطب أن يرحل عن العاصمة ، وأن يتخير له مكاناً يختلف فى جوه وفى بيئته عن هذا المكان الذى عاش فيه السنين الطوال ، فلو فعل ذلك لظفر براحة النفس ، وتدارك من صحته ما وهن .

آن « لبليغ أفندى » أن يؤمن بنصيحة صديقه المتطبّب ، فليرتحل على عجل .

ولم يكن أمامه إلا إحدى اثنتين : الأولى أن يذهب إلى الحاج « رزق » فى « كفر سفيطة » ، والأخرى أن يقصد الأستاذ « رشادا » فى « الإسكندرية » . . . ولبث ساعة يفاضل بين قريبه الحاج « رزق » وصديقه الأستاذ « رشاد » ، ويوازن بين الحياة فى الريف والحياة فى المصيف ، بين « كفر سفيطة » القابعة بين القرى والحقول ، و « الإسكندرية » عروس البحر المحوطة بالمباهج والمسرات . وانتهت به المفاضلة والموازنة إلى تلبية هاتف القلب ، فآثر الرحيل إلى الثغر .

حقاً سيفاجأ به صديقه الأستاذ « رشاد » ، فما كان ليتوقع

زيارته إياه ، ولكن ماذا يحجم به عن مفاجأته ؟ ألم يستضف « بليغ أفندى » صديقه « رشادا » غير مرة فى زوراته للعاصمة ؟ لطالما حل بداره دون دعوة أو استئذان ، وكثيراً ما ردد على مسامع « بليغ أفندى » أن بيته فى « محرم بك » يرحب باستقباله فى أى وقت يشاء . ولشدّ ما أثار شوقه إلى زيارة « الإسكندرية » بما كان يفيض فيه صديقه من وصف خلاب لحياة الشاطئ ومتعه الفاتنة .

إن « بليغ أفندى » لم يشهد الثغر ، ولم تكتحل عيناه بمرأى البحر ، ولكن ما نقلت إليه الصحف من صور ومناظر ، وما ارتسم فى مخيلته من أصداء الأحاديث ، كان يتمثل له وهو فى طريقه إلى دار صديقه فى حىّ « محرم بك » فيملأ صدره طمأنينة ورضا ، ويمنى نفسه باستمراء البهجة والمتعة والإيناس .

وظل يتعرف الطريق حتى وافى الدار قبيل الظهر ، فإذا هى دار سامقة من تلك الدور الجديدة التى تتكاثر طباقها ابتغاء الربح ، فتزدحم فيها الأسر ازدحام الخلايا بأسراب النحل ، وكان صديقه « رشاد » يقيم مع أسرته فى شقة عالية من هذه الدار .

وصعد « بليغ » الدرج ، يحمل معه حقيبته المختنقة بألوان الهدايا . فبلغ باب الشقة مبهور الأنفاس ، يتفصد من جبينه العرق ، وضغط زر الجرس ، فتعالى منه صوت رنان تجاوبت به الأرجاء ، وما لبث الباب أن انفرج عن امرأة مفرطحة رخوة ذات قسمات ناصلة ، عليها جهامة وعبوس ، وهى تقول فى همهمة ، وكأنها تنتزع الكلمات من فمها انتزاعاً :

دق الجرس ممنوع . . . ممنوع يا ناس !

فقال لها « بليغ » وهو يتلعثم من حيرة وخجل :

المعذرة . . . لم أكن أعرف . . . أنا « بليغ » . . . صديق الأستاذ « رشاد » . . . أخبريه أنى حضرت .

واجتلب لفمه ابتسامة مضطربة لم تعرها « المفرطحة الرخوة » جانب اهتمام ، وقالت له وهى تضع سبابتها على فمها هامسة :

أرجو منك يا « بليغ أفندى » ألا تعلى من صوتك ، وألا تبدى حركة مسموعة . . . إن السيدة لم تذق النوم منذ ليال . . . هلم . . .

وخطت فى الردهة خطوات سلحفاة ، و « بليغ » يقفو أثرها مختلساً النظر إلى هيكلها العجيب ، فخيّل إليه أن أوصالها يسوخ بعضها فى بعض كما تسوخ كرة من العجين إذا تدحرجت على منحدر ، فاتخذت لها فى كل لحظة كياناً جديداً وشكلا طريفاً .

وما إن بلغت به « الرخوة » حجرة الزوار حتى استخفت عنه ، فراعه الصمت القابض الضارب أطنابه فى البيت ، واتخذ مجلسه مستوحشاً يستعيد ما استقبلته به المرأة من قول ، ويحاول أن يستشف ما غمض عليه من الأمر ، وكان ينتهى إلى سمعه فى الحين بعد الحين همسات قلقة ، وتنهدات حرجة ، وخطوات حذرة ، فتزيده من اضطراب وضيق .

وبينا هو كذلك إذ علت صيحة نسوية تنم عن استغاثة والتياع ، فنهض « بليغ » من مجلسه يرجف ، وتوالت بعد الصيحة صيحات أشد وأنكى ، فجعل « بليغ » يدور فى الحجرة تستبد به الحيرة ، ثم سكن البيت ، وأطبق الصمت ، فانثنى « بليغ » إلى مقعده يمسح وجهه ويروّحه بمنديله ، وهو مصغ إلى كل نأمة تصدر .

وتوارد على سمعه صرير باب الشقة ينفتح ، وما هى إلا أن لمح صديقه « رشادا » يدخل على رقبة وتخوف ، عارى الرأس ، أشعث الشعر ، مختلج الملامح ، فحيّا « بليغاً » تحية خاطفة ، وأردف يسأله فى لهفة :

ألم يتم الوضع ؟

وأجابه « بليغ » فى ارتباك :

أى وضع ؟

وتشابكت على فم « رشاد » بضع كلمات وجمل تكشف الستار عن تلك الحالة الشاذة التى تسود الدار . . . إن « رشادا » ينتظر « الحادث السعيد » أول مرة ، وتلك زوجه تعانى المخاض منذ يومين ، وقد بلغ بها عسر الولادة كل مبلغ ، فاضطربت أعصاب « رشاد » حتى فقد اتزانه ، ولم يعد يستطيع البقاء فى الدار ساعة ، فهو يهيم على وجهه طول يومه ، ولا يلم بالدار إلا لكى يتسقّط الأخبار .

وفى هذه اللحظة ارتفع صوت الزوجة يدوّى ويزلزل الأركان ، فاندفع « رشاد » يضرب رأسه بجُمع يده ، وهو يردد متحشرج الصوت :

سأجن بلا ريب. . . سأجن . . . لا . . . لا صبر لى .

وانفتل من باب الشقة يتواثب على الدرج ، كأنه فريسة يتعقبها الصائد .

ومَثَلَ « بليغ » وسط الحجرة ذاهل اللب ، يهم بأن يزايل الدار من فوره ، لينجو بنفسه من هذه الكربة المحيطة به ، فوقع بصره على الحقيبة ، وهى على قيد خطوات منه ، منتفخة بالهدايا ، تكاد تتميز غيظاً . . . فعن له أن يتريث بعض الوقت ، لعل الغمة تنزاح ، وإذا هو يسمع الزوجة صارخة تقول :

سأموت . . . سأموت لا محالة .

وألفى « بليغ » يده تأخذ بمقبض الحقيبة ، وقدميه تزجان به نحو الباب ، فإذا هو حيال « الرخوة » تنظر إليه بعين زائغة ، وتقول :

لقد ترك « رشاد أفندى » البيت وهو أقرب إلى الجنون منه إلى العقل ، وليس هنا إلا السيدات ، والداية تطالبنا بأشياء مهمة . . . فما العمل ؟ ما العمل ؟

وبرزت الداية تتلوى وتتخلج ، وأكداس لحمها الحبيس

فى تلك الخرقة القصيرة البيضاء التى تسمى ثوباً — تحاول أن تبص من جهات شتى تعلن تلك البضاعة الرخيصة الشوهاء . وتدانت من « بليغ » مرفوعة الهامة ، مشمرة الكمين ، كأنما هى على وشك الدخول فى حلقة للمصارعة ، وانبرت تعدد له فى صوت غليظ مهيب ما هى فى حاجة إليه من معدات ، وختمت حديثها تقول :

يجب إحضار هذه الأشياء الساعة .

وسرعان ما أجاب « بليغ » وهو يحدق فى ذراعها العارية الضخمة بعضلاتها المفتولة :

ستجدين كل ما تطلبين حاضراً فى لحظات .

وركض يطلب الباب ، وبعد قليل عاد يحمل حزمة كبيرة تحتوى على زجاجات ولفائف ، ومما أدرك الشقة حتى كاد يسقط من الإعياء. وانسرح به التفكير فى شأنه ، وجعل يراجع نفسه فى ضجر ، ولكنه لم يلبث أن عدل قامته ، وتنفخ فى وقفته . أليس حسبه أنه أرضى ضميره ، وأنه نهض بما تقضى به المروءة فى ساعة الشدة ؟ . . .

ودخل الردهة ، فامتدت إليه تلك الذراع الضخمة ذات

العضلات المفتولة ، وتناولت منه الحزمة على عجل ، وتوارت بها فى إحدى الحجر ، ولم تكد تغيب فيها حتى برزت « الرخوة » تنساب فى مشيتها انسياب الزواحف ، وقالت فى صوت مستضعف واهن كأنها تسلم الروح :

هناك زائر فى حجرة الضيوف .

وأخذت تدفع به ما وسعها أن تدفع . . . وكان الزائر أحد الجيران ممن سمعوا بالخبر ، فجاء يستخبر ويهنىء ، فاستبشر به « بليغ » وظن أنه منتفع به فى هذه الساعة العصيبة ، بيد أن الزائر ما إن حيا حتى انصرف ، وهو يرجو للأسرة سلامة وعافية .

واندفق سيل الزوار ، و « بليغ » لا يودع واحداً منهم حتى يستقبل آخر ، وأحس بأنه ذلق اللسان مستفيض البيان فى وصف الحال ، وهو الذى لم يتوضح له من شخصية « البطلة » إلا صوت كصفارة القطار المكبوتة . . . يطلب النجدة ويعلن الشكوى !

وساد البيت هرج ومرج ، فالأقدام غادية رائحة ، والأصوات صاخبة محتدة ، وتصايح الاستغاثة يتواصل من

حجرة « البطلة » حيناً يشتد وحيناً يضعف . واستيقظ البيت كله يقظة كهربية أحس « بليغ » أنه قد أصبح قطبها العتيد ... وخالطه زهو واعتزاز ، فراح يصدر الأوامر والنواهى ، ويلوّح بيديه لمن هنا وهناك ، ويتطاول برأسه فى سطوة وتأمر .

وتقدمت منه الداية البادنة بذراعها الضخمة وعضلها المفتولة ، وقد وضعت يديها فى خاصرتيها تقول :

الحالة شديدة . . . لا بد لى من مساعد يشاركنى فى عملى . . . علىّ بطبيب .

ولم يستطع « بليغ » أن يجيبها بحرف . . .

من أين له بالطبيب ، وهو فى هذه البقعة غريب لم تطأها قدمه قبل اليوم ؟ وأراد أن يعبر للداية عما يجيش فى خاطره ، ولكنها أسرعت تدفع إليه ورقة وهى تقول :

دونك أسماء بعض الأطباء الذين أستطيع التعويل عليهم فى هذه الحالة . . . استدع لى أحدهم من فورك . . . لا تنس أن فى يدك مصير روحين بشريين ، وأنت عنهما مسئول .

وأخذ « بليغ » الورقة يهرول بها خارج الدار ، وكلمة الداية تناوش سمعه ، فماذا يصنع وقد وكلت إليه الأقدار مصير

روحين من بنى الإنسان يعانيان الكرب والضيق ؟

وما إن لمح سيارة أجرة فى طقريه حتى استوقفها ، فأقلته تقطع به المسالك فى جيئة وذهوب ، لا يهبط منها هنيهة حتى يعود إليها لتواصل السير ، فمرة يعلم أن الطبيب فى زيارة خارجية ، ومرة يخبره الطبيب الثانى بأن بين يديه مرضاه لا يستطيع أن يتخلى عنهم ويمضى معه ، ومرة يجد الطبيب الثالث قد نام نومة القيلولة وليس إلى إيقاظه من سبيل . . . وبعد لأى عاد أدراجه إلى الدار بطبيب لم يكن اسمه مدرجاً فى القائمة ، ولكن هداه إليه سائق السيارة الحيرى بين عيادات الأطباء ذات اليمين وذات الشمال .

وزاول الطبيب عمله فى نشطة واهتمام ، فبدا فى ميدعته البيضاء الأنيقة وقفازه الأحمر المطاط ، وقلنسوته الناصعة تنحرف على فوده فى تفنن ، فتبرز خصلة من شعره المواج ملتمعة على الجبين .

وأخذت الحميّة من « بليغ » كل مأخذ ، فهو ذاهب آيب لا يقر له قرار ، يستقبل الوافدين من الجيران يستنبئونه ، ويلقى بأوامره إلى « الرخوة » فى تخشن ، ويتلقى الأوامر من

الذراع المفتولة العضل فى طوع ، ويستمع إلى صاحب القلنسوة الناصعة معجباً بالخصلة اللامعة من شعره المواج ، وهو فيما بين ذلك على الدرج صاعد هابط يقضى مطالب الدار .

وبغتة رن فى حجرة الوالدة صياح حادّ . . . إنه الوليد المرتقب يعلن قدومه السعيد بهذا اللحن الرنان . . . قطعة من اللحم لا تزن بضعة أرطال تقيم الدنيا وتقعدها أياماً وليالى معدودات !

وأحس « بليغ » بهزة من الاهتياج تنتظم أوصاله ، وأهل الدار ممن يعرف ومن لا يعرف يقبلون عليه يطارحونه التهانى فى بشر وابتهاج ، حتى إن « الرخوة » وهى فى نشوة سرورها أخذت به تحتضنه وتطبع على خديه قبلتين حافلتين . أما صاحبة الذراع المفتولة العضل فقد توالت ثرثرتها فى تبيان ما قامت به من أعمال البطولة فى الموقف العسر ، حتى استطاعت أن تستنقذ الطفل وأمه من براثن موت وشيك . . . وبعد هنيهة أهل صاحب القلنسوة الناصعة المائلة على الفود ، وبين يديه الوليد تكتنفه اللفائف ، فلا يرى منه إلا عينان

تبرقان ، وشدق لا يهدأ له صراخ .

وألقى الطبيب باللفيفة الصاخبة إلى « بليغ » ، فتناولها منه حائراً يعروه الارتباك ، وطفق يدور بها ولا يفتأ يدور .

وخفّت وطأة الضجيج ، وانصرف الطبيب ، فصاحبه « بليغ » حتى باب الدار ، ودس فى يده ورقات مالية يكرم بها وفادته ، ويحسن جزاءه .

ولما فرغ « بليغ » من توديع الطبيب عاد صاعداً إلى الشقة ، فوجد الصمت يغشاها ، فدلف إلى حجرة الزوار ، ونظر فى ساعته ، فإذا هى قد بلغت من دورتها الغاية . . . الوقت إذن منتصف الليل . . . وشعر بأن أوصاله تتخاذل ، فاسترخى على مقعده ، فأسرعت إلى فمه تثاؤبة مجلجلة زلزلت كيانه ، فقام إلى متكأ فسيح ، وما عتم أن تهالك عليه ، وغاب فى سبات عميق .

وبعد حين أحس « بليغ » بأن يدين تهزانه فى إلحاح ، فنهض برأسه متفزعاً تختلج عيناه ، فطالعه طيف إنسان يتلوى ويتصايح أمامه تصايح المشعوذين ، وهو يقول :

هنئنى يا صديقى ... قدومك خير ... لقد صار لى غلام !

فاجتهد « بليغ » أن يفتح عينيه ، وهو يمسح لعابه المتسايل على جانبى فمه ، وهمهم فى صوت أبح :

مبارك يا سيدى . . . مبارك !

وسرعان ما تهاوى على المتكأ ، وقد علا غطيطه ، كأنه خوار ثور ذبيح .

خصام

ـ أأنت استدعيتنى يا أماه ؟

ـ نعم يا « سلام » استدعيتك ، فهلا حزرْتِ لماذا ؟

فابتسمت « سلام » ابتسامة استخفاف ، وقالت :

لا أعرف قطّ . . .

ـ ولكنى أؤكد لك أنك تعرفين . ويسوءنى منك هذا التجاهل المصحوب بالازدراء . . . لو كنت مكانك لما وسعتنى هذه الدنيا بأكملها . ولكنت الآن على أحسن زينة وأزهى ملبس ، أستعد لمقابلة خاطبى الجميل .

ـ خاطبى ! .

ـ لا تثيرى غضبى يا « سلام » . اذهبى واخلعى ملابسَ الركوب . إنها ملابس زَرية لا تليق لمثل هذه المناسبة . اذهبى ورتبى شعرك وزينى نفسك .

ـ ولكنى ذاهبة كما تعلمين لأقوم بنزهتى اليومية على ظهر فرسى .

– ألا يمكنك أن تتركى نزهتك يوماً واحداً – يوم عودة خاطبك من أوربا بعد غيبة ستة أعوام !

فلمعت عينا « سلام » ببريق الغضب ، وقالت وهى تضرب قدمها بعصاها الصغيرة :

لقد كررت على مسمعك يا أمى أننى لا أعرفُ لى خاطباً .

– تعالى ، تعالى ، اجلسى بجانبى لحظة . لحظة وجيزة . تعالى يا حبيبتى .

وجلست « سلامُ » صامتة بجوار أمها ، وروحُ الثورة ما زالت متأججةً فى صدرها ، فاحتضنتها أمها وقبلتها ، ثم قالتْ لها وهى تحاول الابتسام :

أريد أن نتفاهمَ يا حبيبتى . هل التفاهم حرام ؟ أتشكين فى حبى لك يا « سلام » ورغبتى فى إسعادك ؟

– كلا . . .

– فإذا كنتُ قد اخترتُ « شوقى » زوجاً لك فلأننى وجدته أفضلَ شخص يليقُ بك . إنه شابّ غنىّ ذكىّ حائزٌ لأرفع الشهادات . ألا تعلمين أن فتيات كثيرات يتقاتلنَ عليه ، وينتظرْنَ عودته بفارغ صبر ، لينصبن له شباكهن ؟ . .

— فليأكلوه . . . !

— لماذا نتركه لهنّ ؟ لماذا ؟ وهل نجد أحسنَ منه ؟

— ومن قال لك إننى أبحث عن زوج ؟

فنظرتْ إليها أمها نظرة جزَع وألم ، وأخذتْ يدها وشدّت عليها فى تأثر . وقالت فى صوت مخنوق :

لم هذا العنادُ يا « سلام » ؟ وإلى متى تحيَينَ هذه الحياة المملة . بعيدة عن المجتمعات ، بعيدةً عن وسائل البهجة والمسرة ؟ أتريدين تحطم قلب أمك التى لم يبقَ لها فى الدنيا سواك ؟ أليس أملى الوحيدُ فى الحياة أن أراك مع زوجك وأطفالك سعيدة هانئة البال ؟ . . . لماذا تريدين أن تحرمينى هذه الأمنية يا ابنتى ؟

ورفعت يدَ ابنتها إلى فمها ، وقبلتها قبلةَ حنوّ ورجاء ، واستأنفتْ قولها :

لقد تقدّم لك أناس كثيرون من أشرف رجال البلد وأرفعهم . فرفضتهم جميعاً . رفضتهم بلا سبب . فلم ذلك ؟ وأخيراً يعود « شوقى » قريبك وهو من لحمك ومن دمك ، وقد نشأ وتربّى معك فى بيت واحد . أيعودُ بعد غيبة طويلة

فيجدَ منك الرفض والإهمال ؟

وتأثرت « سلام » بمنظر أمها فاحتضنتها وقبلتها ، وقالت لها فى رفق :

ولكنك يا أمى تتكلمين فى أشياء سابقة لأوانها . فهل خطبَنى « شوقى » صريحاً ؟

— صريحاً ؟ . . . كلا . ولكن الناس يعلمون أنه خاطبك وكلنا نتحدث بذلك منذ كان بيننا — قبل أن يسافرَ إلى أوربا .

فتجهم وجهُ « سلام » بغتةً ولم تجبْ . وخشيتْ أمها أن تسيءَ إليها من حيث لا تدرى . فلاطفتها وقالت لها :

— لا يسؤْك كلامى يا حبيبتى .

وقامتْ « سلام » تريدُ الخروج ، فقالتْ لها أمها :

— لا تطيلى نزهتكَ يا حبيبتى . لا تنسىْ أنه سيحضر قبل الغداء . . . عليك أن تساعدينى فى ترتيب المائدة . أما أنا فذاهبةٌ إلى المطبخ لعمل الشركسيّة .

* * *

عاد « شوقى » إلى الدار بعد غيبةٍ طويلة قضاها فى

ربوع أوربا ، يتعلم ويستمتع فى مغانيها . عاد إلى دار الأسرة القديمة حيث قضى ريعانَ طفولته وشبابه . عاد إليها ليحيا حياةَ الاستقرار والعمل المنتج .

نزل من السيارة ، ووقف أمامَ الباب يحدّق فيه ، ذلك الباب الضخم الهرم المحلى بالنقوش العتيقة . لن ينسى مطلقاً يومَ خرج منه منذُ ستة أعوام يطلبُ المجد ، وكأنه منتشٍ بخمر لذيذة تُلهبُ دمه .

. . . . . لم يحدث تغيير يذكر . كلّ شىء على حاله . فالبوابُ كما هو مشرق بابتسامته ، يحييه فى لغته المألوفة . والبستانىّ يهرَعُ إليهُ ويقبلُ يدَه ، ويقدّم له زهرَ العتر . والحديقةُ على حالها مهملةٌ بأشجارها الكثيفة وطرقاتها غير الممهدة . . . وأخيراً حجرته . أجل حجرته ، كما كانتْ لم يتغير فيها شىء ، كأنه تركها بالأمس . إن « تسفيرَ » العجوزَ لم يفتها إعدادُ القلة النظيفة المبخرة والمنشفة الزاهرة و . . . وطغت عليه ذكرياتُ الماضى الجميل ، فنظر حوله فى غبطة ، وقال :

كلّ شىء على حاله يا « تسفيرُ » فما أسعدَنى بكم !

وأخذ يتحدث إلى « تسفيرَ » يسألها عن المنزل وأهله . وما جرى فيه أثناءَ غيابه . سألها عن أشخاص كثيرين وأمورٍ شتى . فنظرتْ إليه « تسفير » نظرةَ استغراب ، وقالت :

ولكنك لم تسألني عنها . . .

— من تقصدين ؟ .

— هي يا سيدى . هي صديقتك الصغيرة .

— من ؟

— « سلاَم » يا سيدى !

— أوه « سلامَ » ! كيف هي ؟ أما زالت نحيفةً ضئيلة كالسمكة المقدّدَة ؟ !

— السمكة المقددة . . . إنها ملء العين والخاطر . سمنٌ على عسل يا سيدى !

— أنت تبالغين . ولكن خبريني : أما زالتْ ترتدى المِيدعة الزرقاءَ المبرقشةَ برشاش الحبر ؟ !

— ما هذا الكلام يا سيدى ؟ إنك تتحدث عن الصغيرة « سلام » التى لم تكن تبلغ الرابعةَ عشرةَ بعدُ . أما الآن فهى غيرُها بالأمس . إنها ترتدى الثياب على أحدث زىّ . وتزين

نفسها كعروس ليلة زفافها . . .

— وأين هى ؟

— خرجت راكبةً فرسها لتقضى نزهتها اليومية .

— راكبة فرسها ؟ . . . أمر مدهش !

— هناك يا سيدى ! ليس هذا كل شىء . إنها تعزفُ على البيان كأمهر العازفات . وتتكلم الفرنسيةَ طلقةَ اللسان . وتقرأ الصحف . وتفهم كلّ شىء .

وسُمع فى تلك اللحظة صهيلُ فرس ووَقع حوافرها على أرض الحديقة الصّلبة . فهرعتْ « تسفيرُ » إلى النافذة ثم صاحت متهللة :

إنها هى !

وأطل « شوقى » من النافذة ، وما كادت عيناه تقع على « سلاَم » حتى صاح مدهوشاً :

أممكن هذا ؟

ونزل « شوقى » ليستقبلها ، فرآها تترجلُ بالقرب من الباب ، فتقدم نحوها ومدّ لها يده ، وهو يقول :

هالو « سلام » . . . كيفَ حالك ؟

فأجابته فى لهجة عادية بلا حماس :

الحمدُ لله . وأنت ؟

ودهش « شوقى » من لهجتها ، ولكن راعته نبراتُ صوتها . وأخذ يتأملها طويلاً ، فإذا هى فى قوام ممشوق ، وحركات رشيقة ، وشمائلَ حلوة . فيها طراوة وجاذبية على الرغم مما يبدو عليها من إهمال .

وناولت « سلام » اللجام للسائس ، وأصدرت له أوامرها . ثم سارت متجهةً ناحيةَ السلم . و« شوقى » سائر بجانبها صامتاً ، وقد أحس على الفور شيئاً يحيره ويتعبه . وأخيراً تكلم فقال :

يخيلُ لى أن كلّ شىء على حاله فى هذا المنزل لم يتغيرْ ، سوى أمر واحد . . .

وظهرت السيدةُ « امتثال » والدة « سلام » ، وكانتْ على أحسن هيئة . مرتدية ثوباً منفوشاً منشى كأنه الورقُ المقوى . وشعرُها يلمع من تأثير المكواة الحامية . تقدمت نحو « شوقى » فى تهلل ، وبسطت ذراعيها وقالت فى صوت متهدج :

أهلا وسهلا بابننا العزيز . أهلا وسهلا بابننا الحبيب .

إن يومَ عودتك ليومُ عيدٍ لنا عظيم !

وطوّقته بذراعيها وقبلت رأسه . وسمعته يقول :

إن سرورى برؤيتكم لا يُقدّر .

ومسحت السيدة « امتثال » عينيها الدامعتين ، وقالت :

لقد كنت أسألُ عنك دائماً ، ولا يهدأ لى بالٌ حتى أطمئن عليك .

وتأملته طويلا وقالت :

ما شاء الله . ما شاء الله ! حمى اللهُ لك شبابك يا ابنى !

ووقع بصرُها على « سلام » فاكفهرّ وجهها ، وقالتْ لها فى لهجة ثائرة مكتومة :

أبهذه الهيئة تقابلين زُوّارَك ؟

ثم التفتت إلى « شوقى » وقالت :

لم تقصد « سلام » أن تظهرَ أمامك هكذا . لقد جمحت بها الفرسُ وضللتها فتأخرتْ فى العودة على غير رغبة منها ، فلم تستطع أن تغير ملابسها . . .

فقالت « سلام » فى هدوء وهى تداعبُ عصاها :

كلا يا أمى ، لم تجمح بى الفرس ولم تضللنى ...

فنظرت إليها أمها نظرة ملتهبةً ولم تتكلم، وقال « شوقى » وهو يبتسم :

إن ركوب الجياد رياضةٌ جميلة ، وإنى أهواها .

* * *

اختفت « سلام » بعد هذه المقابلة ، ولم تظهر إلا وقت الغداء . وكانت ترتدى ثوباً غايةً فى السذاجة ، ولم تعتن بزينتها ، فثارت ثائرة أمها . ولكنها لم تستطع أن تتكلم . والتفت « شوقى » نحو « سلام » وقال فى لهجة مُخلصة :

لقد أحسنت اختيارَ هذا الثوب يا « سلامُ » . إن لونه وتفصيله يشهدان بذَوْق سليم .

فأجابته فى لهجة مؤدبة عليها مسحة الجفاء :

أشكرك .

وقالت « تسفير » العجوز :

إنه من تفصيلها يا سيدى . ألا تعلم أن « سلام » خياطة ماهرة ؟

فقال :

لقد كانتْ وهى صغيرة تجيدُ تفصيلَ المعاطف

لقطتها . وطالما خاطت لى أزراراً ساقطةً ، ورتقت فتوقاً فى ملابسى .

ونظر إليها ، فابتسمتْ « سلام » ابتسامةً رَسميةً . وقالت « تسفير » :

إنها كانت تفصلُ وتخيط جميع ميدعاتها .

فقال « شوقى » :

هذا صحيح . وعلى ذكر الميدعات أذكرُ كيف أنى دققتُ مرة الحبرَ على ميدعة فأتلفتها . . . ألا تذكرين ذلك يا « سلام » ؟

فقالت فى لهجتها الرسمية :

لا أذكر . . .

— كان ذلك قبلَ سفرى ببضعة أيام . عندما جئت تطلبين مساعدتى فى حل بعض المسائل الحسابية .

فلم تجبْ . ثم حولت رأسها ناحيةَ الباب ، وقالت للخادمة : متى تحضرين الطعام يا « سيدة » ؟

* * *

بدأ الأكل وانتهى ، و « سلام » لم تفتحْ فمها إلا لتجيب

بنعم أو لا ، أو غير ذلك من الكلمات الواجبة . وكان كل ذلك مصحوباً بابتسامة مغتصبة ، أو إشارة مقتضبة . وكانت أمها تغلى كالمرجل . وطالما رمقتها بنظرة حادة أو عتاب مرّ . أما « تسفير » فقد باءت بإخفاق مُروّع فى محاولتها إضحاكَ « سلام » أو تحريضها على الكلام . وقد أنقذ « شوقى » الموقفَ بحديثه المسلى عن سفره وحياته فى أوربا ، وما اعتزم أن يفعله الآن .

وترك الجمعُ حجرة المائدة . وذهب « شوقى » إلى الشرْفة ليدخن لفافة ، وانتحى ناحيةً فى ركن بعيد . وأخذ يفكرُ فيما مر عليه الساعةَ من مشاهدَ ، وهو حائر لا يستطيعُ لها تفسيراً . وفيما كان على هذه الحال رأى « سلامَ » تدخلُ الشرفة ، وما كادت عيناها تقعُ عليه حتى توقفت عن المسير وتأهبت للعودة وهى تقول :

لا مؤاخذةَ . . .

وسار إليها « شوقى » ورافقها إلى الشرفة ، وقال لها فى عتاب :

أيزعجك مرآىَ إلى هذا الحد ؟

– أنت بلا شك مُتعَب ، تطلبُ الخلوةَ لتستريح .

– الحمدُ لله ! هذه أول جملة طويلة أسمعُها منك منذ حضورى .

– ماذا تعنى ؟

– أتذكرين كيف كانت « سلامُ » الصغيرةُ تملأ المنزلَ كله بكلامها وضجيجها ؟

فابتسمت فى إهمال ، وقالت :

إن « سلام » الصغيرة قد ماتت !

– ولكنها تعودُ إلينا أبهى وأعظمَ مما كانت .

وأمسك يدَها يداعبها ، فجذبتها منه وخرجت ، و « شوقى » ينظر إليها فى حيرة .

* * *

ومضى أسبوعان و « سلام » لم تغيرْ مسلكها نحو « شوقى » كما أنها لم تبدّل شيئاً من حياتها التى اعتادت أن تحياها . فلم تكن تطيلُ وقوفها معه . بل تقتصرُ على السلام وتبادل الكلمات القليلة . وكان يحسّ أنها تتجنبُ مرآه بقدر المستطاع ، مع محافظتها على المظاهر فى أدب ولباقة . ولم

تستطع أمها بعتابها تارةً وتوبيخها تارة أخرى أن تحملها على تغيير مسلكها ، فتركتها وشأنها خشيةَ أن تسوءَ العاقبة .

وعجبَ « شوقى » من أمر نفسه . إن اهتمامه بهذه الفتاة يزدادُ يوماً بعد يوم . لقد عرف مواعيدها فكان يراقبها ويستمتع بمرآها وبحديثها القصير المبتور كلما وجد إلى ذلك سبيلا . فهو بجوار الباب كلما خرجتْ للركوب وكلما عادت . وهو تحت نافذة حجرتها يصْغى لأنغام البيان التى تعزفها فى شوق وحنين . وهو فى الحديقة وقتَ نزولها إليها عصراً لتجمع الزهور ، يسيرُ جيئةً وذهاباً فى الممشى الكبير وفى يده كتاب مطبَق ، ويبادلها التحية من بعيد أو من قريب . وكان أحبّ الأوقات إليه أن يذهبَ إلى مخبأ يطل على شرفة حجرتها ، حيث كانت تتمدّد على مقعدها الطويل بعد خروجها من الحمام تجفف فى الشمس شعرَها الأسود الطويل ، وقدماها العاريتان المشربتان بحمرة فاتنة تلمعان فى الضوء القوى . فكان يعجبه هذا المنظر الرائع . ويشتهى أن يشبع عينيه منه مدى العمر .

كانت « سلام » تعيش فى مملكةٍ خاصة بها وحدها : هى

نفسها لا أقاربَ ولا أصدقاء تزورُهم أو يزورونها . أطيبُ الأشياء إليها نزهة على ظهر فرسها فى الأماكن الطلقة الفسيحة حقولاً كانت أو رمالاً ، أو كتاب تقضى الساعات تستمع إليه صامتة . أو أمامَ « البيان » تفضى إليه ويفضى إليها بشكايات طوال . . . هذا العالمُ الذى تعيش فيه « سلام » والذى يتراءى للناس ضيقاً مملولا أخذ ينكشفُ « لشوقى » عن دنيا واسعة تزخرُ بالكنوز ، ولكنها ظلت دنيا بعيدة المنال عنه .

وكرهَ « شوقى » هذا الغموضَ الغريب القائم بينه وبين « سلام » . فاستولتْ عليه فكرةٌ جريئة اعتزم تنفيذَها مهما يكلفه الأمر .

نزل يوماً إلى الحديقة وكمنَ للفتاة ، وبعد قليل جاءتْ وأخذت تقطفُ الزهور ، وكان المكان خالياً يغمره الصمت . وخرج « شوقى » من مخبئه وانسلّ إليها من الخلف ، فأمسك رأسها وأداره ناحيته بسرعة وطبع على فمها قبلةً عميقةً حارة . ثم تركها . . . فوقفت الفتاة هنيهة أمامه مصعوقة ، ثم احمرّ بغتةً وجهها واحتقنت عيناها . وقالت وهى ترتعش :

أتجرؤ على ذلك ؟ . . .

وتهدّج صوتها واحتبس ، ثم رآها ترفع يدَها فى وجهه ، ولكنها أنزلتها ، واستدارت بسرعة وجرت صوبَ المنزل . ووقف « شوقى » يراقبها حتى اختفت . لقد رأى عينيها تلمعان بوميض غريب لم يَره من قبل . وجرى خلفها حتى وصل إلى حجرتها فوقفَ بجوار الباب يتسمع . فوجدها قد ألقتْ بنفسها على السرير واندفعتْ تبكى فى شدة ، فصبر عليها حتى انتهتْ من البكاء . ثم دخل الحجرةَ فى خطوات بطيئة فرآها جالسة على السرير تجفّف بقايا دموعها . وما إن وقع بصرُها عليه حتى أشارتْ له إلى الباب ، وقالتْ فى حدّة :

اخرجْ !

فتقدم نحوَها وقال فى هدوء :

ألا أستطيع أن أعلم سببَ هذا الخصام ؟

فصاحت :

ــ خصام ! أىّ خصام ؟

ــ خصام أو جفاء . سمِّيه كما تشائين !

وجلس على مقعد بالقرب من السرير . وقال فى حنو وإخلاص ، وهو يحدّق فيها تحديقاً عميقاً :

ألم تدركى شيئاً من أمرى يا « سلامُ » . ألم تكتشفى شيئاً مما يضطرمُ فى قلبى نحوَك ؟

فلم تجب ، وكانت تنظرُ أمامها ولا تتحرّك ، فقال :

لماذا لا تجيبين ؟

وأراد أن ينالَ يدَها فأبعدتها عنه ، وهى تقول فى إصرار :

دَعنى واخرُج . قلتُ لك دعنى واخرج !

فصمت قليلا وهو متعجبٌ متحير ، ثم قال :

أإلى هذا الحدّ تكرهيننى يا « سلامُ » ؟

ـ أجل أكرهك ! أكرهك . . . !

ـ ولماذا تكرهيننى ؟

ـ لأنك أنانىّ . قلبُك من حجر . . . أتذكرُ ليلة سفرك ؟

ـ أذكرها كحلم بعيد .

ـ أما أنا فأذكر حوادثها كأنها حدثت أمس . إن مشاهدَها محفورةٌ فى ذاكرتى .

وصمتت وقتاً تستعيدُ ذكريات الماضى . ثم قالتْ فى لهجة أقل حدةً من ذى قبل :

. . . كنتَ مشغولاً بترتيب أشيائك ، تروحُ وتجيءُ وأنت تصفر مغتبطاً . وكنتُ أتبعك صامتةً وأنظرُ إليكَ تحسر . فالتفتَّ نحوى بغتةً وقلتَ فى حدّة : « اجلسى هنا ولا تتبعينى » . فجلست وأنا لا أفهم سبب حدّتك ، وأحاسب نفسى فيما يكون قد بدَر منى فكان سبباً فى غضبك . . كانت عيناى لا تفارقانك وأنتَ تروحُ وتجيء مشغولا دائماً بأشيائك وحقائبك ، أسمع صفيرَك ذا الروىّ الواحد وأنا صامتة . وطالت جلستى ، وأوشكتَ أن تقفلَ الحقائب ، فشعرتُ بغتةً بدافع قوىّ يدفعنى نحوك فقفزت وتعلقت بك ، وقلت لك فى سذاجة بريئة : « لماذا لا تأخذنى معك ! » فنظرت إلىّ فى سخرية وغيظ ، ثم دفعتنى بيدك ، وخرجت من الحجرة كالزوبعة . . . فى تلك اللحظة شعرت أول مرة بأن غشاوة كانت تغشى عينىّ وأنها أخذت تنقشع . فخرجت أجرى إلى حجرة الفراش وجلست القرفُصاء فى ركن من أركانها ، ولم يخفنى الظلام ، بل أنستُ به . كنتُ فى حاجة إلى الوحدة والتفكير . وأخذت أعرض حياتى معك على ضوء جديد فوجدتها غريبة . غريبة جداً ، كنت أعتقد أننى لا أستطيع

أن أعيش بدونك . كنتُ أنزلُ إلى الحديقة أنتظرُ عودتك من المدرسة ، أعد الدقائقَ واللحظات . فما أكادُ ألمحكَ حتى أهرعَ إليك متهللة باشة فتستقبلني فى جفاء. وتلقى علىّ تحيتك كما يلقى السيدُ تحيته على خادمه . ثم تعطينى محفظتك المكتظة بالكتب فأحملها لك راضية إلى حجرتك . . . وكنت أحب أن أحادثك لأسليك فتصدّنى وتشعرنى بأن حديثى سخيفٌ لا يليق أن يسمعه شخص مثلكَ . وإذا حدثتنى فحديثك دائماً عن شخصك وعن مشروعاتك وعن النجاح الذى ينتظرك . . . دائماً عن نفسك دائماً . . . وكنتُ أصْغى إليك فى اهتمام وشغف ولا أملّ حديثك . وأتصوركَ وقد غدوتَ عظيما من العظماء كقائد منتصر أو كملك كبير ينظرُ إليك الناسُ نظرة الخشوع والإكبار ، وأنظر إليك أنا نظرةَ العبادة . وكنت أنتظرُ منك بالرغم من كل ذلك شيئاً ، شيئاً واحداً ، كلمةً أو إشارة أو ابتسامةً تحمل المعنى الذى أطمع فيه . . . ولكن لم يلفظْ لسانكَ بتلك الكلمة ولم تبْد منك هذه والإشارة . . . فى يوم رحيلك ذهبتُ إلى البهو مبكرةً ، واختبأت خلف إحدى الستائر . وانتظرتُ هناكَ

طويلا وأنا أرتجف وقلبي يدقّ . . . ورأيتك أخيراً وحولك أهلُ المنزل تودّعهم ويودعونك ، وتذكر أسماءهم اسما اسما . ولم أسمعكَ تسألُ عنى أو على الأقلّ تبعث إلىّ بتحيتك . وخرجتَ وأنتَ متهلل الوجه تصفر ذلكَ اللحنَ ذا الروىّ الواحد . وخرج الجمع يتبعونك إلى الحديقة ، وأقفلوا البابَ فلم يعد فى البهو سواى . فتركت مخبئى وهرولتُ إلى حجرة الفراش وحبستُ نفسى فيها طولَ اليوم ، أذرف الدمعَ صامتة . . . منذُ ذلك اليوم كرهتك وكرهتُ « الرجل » فى شخصك . لقد كنت وقتئذ صغيرة جاهلة غبية . يحقّ لكَ أن تقولَ ذلك . ولكن كان لى قلبٌ ، وكانت لى أحلام ، فدستَ ذلك القلبَ ، وحطمتَ هذه الأحلام . . . أما أنتَ فقد تجمّع فيك كل شىء : ذكاء وعقل وعزيمة . ولكن كان يعوزك شىء واحد وهو فى نظرى كل شىء . . .

فهمهم « شوقى » :

. . . ولكن كان ذلك فيما مضى . أما اليوم . . .

ـ لقد فاتَ الأوان . إن الهاوية التى بيننا سحيقةٌ ، سحيقة جداً ، ولا يمكن أن نتخطاها .

وصمتتْ و «شوقى» ينظرُ إليها ولا يتكلم. وطال صمتهما. وأخيراً قام «شوقى» وتناول يَدَها فى سكون، وطبع عليها قبلةً عميقة، ثم خرجَ بلا كلام!

* * *

ومضت الأيامُ ولاحظَ الناس على «شوقى» تغيراً كبيراً. لقد قلّ كلامه وغاضت ابتسامته وكثر تفكيره، وآثر الوحدة فى حجرته أو فى ركن ناء مختف فى الحديقة، يقضى وقته يفكر فى كآبة، وكان يتجنبَ جهدَ إمكانه مقابلة «سلامَ» فإذا اضْطر إلى لقائها حياها فى أدب ولم يطلْ وَقفته. أما هى فقد ازدادت انطواء على نفسها. وكانت عيناها الواسعتان السوداوان قد أخذَتا فى الذبول، وانطبعتْ عليهما آثارُ البكاء، تنطقان بحيرة وقلق ويأس دفين...

* * *

وفى مساء يوم من الأيام كان «شوقى» فى حجرته يرتبُ أشياءه فى حقائبه تساعدُه «تسفيرُ» العجوز. وكان يعملُ صامتاً، والمرأةُ حائرة حزينة. وسمعها «شوقى» تقول:

وإلى أين تسافر يا سيدى؟

– خارجَ القطر .

– أينَ ؟

– لا أدرى !

– ولماذا عدت إلينا إذن ؟

– العلمُ عند الله !

* * *

وفى الصباح المبكر تأهب المنزل لوداع « شوقى » . وخرج الفتى إلى البهو وهو يحمل معطفه على يده . كان يسير متمهلا ويحيى مودّعيه فى وداعة عليها مسحة الكآبة . وقبل أن يتخطى البابَ وقف والتفتَ حوله يؤمل أن يرى شخصاً معيّناً بين الحاضرين ، فلم يجده . ووقع بصرُه فجأة على إحدى الستائر وكانت تهتزّ ! . . . فأخذ يحدّق فيها وقلبه يخفق . أهو الهواء يحركها أم هو شىء آخر ؟ . . .

وطالتْ وَقفتهُ كما طال تحديقه فى الستارة ، وقد تتابع خفقانُ قلبه . . .

ولكن الستارة سكنتْ ولم تعدْ تتحرك . . .

فحول وجهه نحوَ الباب ، وخرج وهو يوسع الخطا ! . . .

وقصص أخرى . . .

كان هذا فيما مضى . . .

وأنا يومئذ فى أوج الشباب ، أستقبل من حياتى القصصية فاتحة تملؤنى من زهو واعتزاز . . .

أقبل الصيف يلفحنى بأنسامه الحارة ، فخليت له وجه « القاهرة » وفزعت بأنفاسى إلى الثغر ، أستنشى منه أنسام برد وسلام .

وفى تلك الحقبة كانت « سيدى بشر » جنيناً يتخلق ، فليست هى إلا طريقاً متفرداً تتناثر عليه أبنية متطامنة ، والبقعة على شاطئ البحر كثبان من الرمال . . .

كنا فى المنزل الذى اخترناه هنالك لا يهنأ لى مقام . . . فالعمال طوال النهار جادون فى تعبيد « الكورنيش » ، يعالجون وصل أجزائه بعضها ببعض ، لتصايحهم وصخب معاولهم وآلاتهم هدير يعلو على هدير الموج ، فالضجة بينهم دائبة تعكر صفو الهدوء المنشود فى المصيف . . .

ولم يكن يعنيني حينئذ إلا أن أفرغ لقصة مطولة ، أرجو لها صفاء الذهن ، وألتمس لها الخلوة من كل شاغل ، حتى أتم تدبيجها على خير ما أريد . . . فمضيت أجوب البقعة ، لعلني أظفر فيها بمعزل عن الضجيج .

ووجدت أخيراً ضالتي المنشودة في مشرب صغير ضائع على مشارف المدينة ، تحسبه منسيًّا من العالم الحي ، فشملتني به فرحة بالغة ، وسرعان ما أصبحت من روّاده على تعاقب الأيام .

في هذا المشرب يبرز صاحبه ، وهو رجل رومي يسمى « سقراط » ليس فيه من شخصية سميّه فيلسوف الإغريق العظيم إلا تشابه في السحنة ، إذ كان موفور الدمامة ، أما العقل والفطنة والحكمة فلم يكن له منها نصيب ، بل لقد كان جَهولا ضيق الأفق ، وكان إلى ذلك غبيًّا لا يفهم . ألكن لا يُبين ، وهو لا يحسن لغة من اللغات يفصح بها عن غرضه ، حتى لغته الأصيلة .

فإذا تخلف عن المشرب غلامه ، وتقدم « سقراط » ينوب عنه في تقديم الأشربة ، صعُب التفاهم بينه وبين الروّاد ،

فشكوا من خلطه بين الطلبات، الراغب فى قدح الشاى تقدّم له القهوة ، وطالب القهوة يزف إليه الزبيب ، والظامئ إلى الزبيب يزداد من ظمإ ولا يرثى له أحد .

وجعل الرواد يتضاءلون يوماً بعد يوم ، فيتنازعنى لذلك عاطفتان على طرفى نقيض : ترانى أغتبط بما يكتمل للمشرب من صفاء الخلوة ، على حين يسوءنى ما يعانيه « سقراط » من كساد . ولعلى فيما استشعرته من إشفاق عليه كنت أخشى أن يغلق المشرب أبوابه ، فأفقد ما وجدته فيه من مثوى هادئ يطيب لى فيه التأليف .

وكان صاحب المشرب لا يكاد يلمحنى أدخل ، حتى يهل علىّ بوجهه ، وهو يرمق حقيبة أوراقى فى تقدير وتوقير ، ولا يلبث أن يحث غلامه على خدمتى ، وبين الفينة والفينة يمر بمجلسى ، مومئاً بالتحية ، أو منحنياً فى ابتسام ، وعيناه أبدا تحدّقان فيما بين يدى من أوراق . . .

فلما صفير المشرب من الرواد أو كاد ، وأصبحت أنا رائده المواظب الذى لا يتخلف ، رأيت « سقراط » يبالغ فى حفاوته بى ما وسعه أن يبالغ . كأنما كان بصنيعه هذا يخشى

أن أفلت أنا الآخر من مشربه .

لقد أخذ الرجل نفسه بأن يرصد مقدمى ، ويسارع إلى حقيبة أوراقى يحملها عنى ، ويشير إلى المنضدة التى أعدها خاصة بى . . . ويأبى أن يدع لغلامه إحضار ما أطلب من شراب ، فهو وحده الذى يحضره لى ، ويقربه منى .

وبعد قليل أراه قد عاد إلىّ يحمل صينية تحفل ببعض الرقائق والمشهيات من الأطعمة ، يتوسطها كأسان مترعتان ، وهو يقول ، أو بالأحرى يعنى أن يقول :

هل لك يا سيدى فى أن تتناول معى كأساً من نبيذى المفضل ؟ إنه خلاصة تجاربى ، وعصارة ذوقى ، وإنى بالأنبذة لخبير أى خبير .

ولا يكاد يتم جملته حتى يكون قد اتخذ كرسيه حيالى ، وتمكن فى مجلسه منى ، رافعاً الكلفة بينه وبينى ، سابقاً بيده إلى الصينية يلتهم منها ما يلتهم ، وإلى الكأس يكرع منها ما يكرع .

فإذا ما أبديت له عذرى فى الامتناع عن الشراب ، ألح علىّ فى أن أتذوق بعض مختاراته من رقائق الطعام ، ولا يلبث

أن ينحى على الكأس الأخرى يصبها فى فمه صبًّا .

وتجاوز « سقراط » فى تكريمه لى كل حد . . . فقد تطوع بالتحدث إلىّ فيما يشغله من شئون الدنيا وهموم الحياة ، يبغى مؤانستى والترفيه عنى ، ولك أن تتصور موقفى من محدث لا يفقه من لغة الحوار إلا ألفاظاً شائهة النطق مبتسرة الأحرف ، يحرك بها شدقيه فى صوت أجش كريه . . . ويطول به الحديث العقيم ، دون أن أبادله القول ، فينتبه أخيراً إلى أنى غير منتبه له ، ويفهم أنى غير فاهم عنه ، فينهض عنى وهو يعتذر . . . ولكن بعد فوات الأوان !

وفى مجلسه منى مرة ، رآنى مصروفاً إلى أوراقى أطالع وأعمل القلم ، فرفع رأسه عن صينية شرابه ، ومسح شاربه المنتفش ، وقال فى لكنته المألوفة ، وعلى محياه علائم حيرة وفضول :

أنت دائماً مشغول بهذه الأوراق . . . أوراق المحاكم . . . أليس كذلك ؟

— أى محاكم ؟

— ألست محامياً ؟

— إنى مؤلف . . .

— مؤلف ؟ . مؤلف ماذا ؟ تقصد أنك محام . . . ؟

فابتسمت أقول :

ليس ثمة كبير بين فرق محام ومؤلف . . . كلاهما يعالج قضايا الناس !

وهز رأسه يفهمنى أنه فهم ، وكأنما عز عليه أن يسترسل فى السؤال ، فأظن به الغباوة والجهل .

وأصر « سقراط » دائماً على أنى محام ، محام مجتهد ، دائب فى عمله صبور ، وأنه يكن لى أوفر احترام وتقدير .

وترادفت الأيام ، واشتد علىّ الحصار من صديقى الرومى . وكان يغلو فى توقيرى بوصفى محامياً نشيطاً ، وازدادت حفاوته بى ، فتزاحمت على صينيته كئوس الأنبذة وصحاف الرقائق والمشهيات ، وامتدت جلساته بطيئة خانقة كأنها كابوس حلم مزعج . . .

ويوماً جاء يجلس منى جلسته المعهودة ، وقد انتفخ جيبه بكتاب . . . فقلت أباسطه :

يبدو لى أنك من عشاق القراءة والاطلاع . . . هذا جيبك يشهد !

فما هى إلا أن أخرج الكتاب ، فإذا هو عتيق الورق ، مهلهل الغلاف ، وألقى به على المنضدة ، وهو يقول :

إنه باللغة اليونانية . . .

— أقرأته ؟

— ما شأنى به ؟ . . . إنه لأحد رواد المشرب ، غفل عنه أمس ، فأنا أنتظر قدومه اليوم لأرده عليه . . .

فامتدت يدى إلى الكتاب أنقل البصر بين صحائفه ، فطالعتنى فيه صور تمثل بعض الأحداث والشخصيات ، فقال لى « سقراط » وهو يعقد حاجبيه ويزرّ عينيه :

كتاب تافه ، لا تلق بالك إليه .

— فى أى موضوع هو ؟

فمثل الرجل وقتاً يفتح فكيه المتيبّسين ويطبقهما ، يجاهد فى الشرح والإفهام . وأخيراً انتهى إلى قوله :

. . . ألم تفهم بعد . . . إنه كتاب « حواديت » !

فرأيتنى أصيح متحمساً :

« حواديت » . . . « حواديت » . . . شىء عظيم !

فارتسمت على وجه « سقراط » دهشة صارخة ، وهمهم :

ولم هذا الاهتمام « بالحواديت » ؟

ـ لأنى أحبها ... اعلم يا صديقى أنى أنا أيضاً أكتب « حواديت » . وهذا شغلى فى أوراقى التى تجدها بين يدىّ .

فانبرى « سقراط » يوزع نظراته بين أوراقى وبينى ، وهو يتمصص شفتيه ، وما عتم أن حدجنى بنظرة استهان شزراء ، وهو يقول :

لست محاميا إذن ؟

ـ لقد نفيت لك أنى محام . . . وأكدت لك أنى مؤلف ... اعلم أنى مؤلف « قصص » .

ـ إذن أنت كاتب « حواديت » ؟

ـ هذه هى الحقيقة .

فانقلبت شفته السفلى تختلج ، وانسدلت على وجهه جهامة وقطوب ، وتقلقل فى مقعده ، ثم نهض يلم صحافه وأكوابه فى الصينية دون تنسيق . . .

وغرب عنى .

وكان الانقلاب الذى كنت أتمناه . . .

لم يعد « سقراط » يهرع إلىّ ليستقبلنى ، ولم تعد حقيبة

أوراقى تَشْرُف بيده تحملها عنى ، فإذا قدمت المشرب تشاغل بشأنه ، ودعا غلامه ليتولى شأنى . . .

وأجده قد اتخذ له كرسيًّا وحده يواجه البحر ، وقد أولانى ظهره ، ولا يفتأ يسرح بنظراته العابسة فى عرض الأفق . . .

وقد تلتقى عينى وعينه ، فيحيينى على البعد تحية عابرة ، فيها مزاج من ترفع وإشفاق . . .

وهكذا خلوت إلى نفسى ، فى جلستى الساكنة ، لا يعكر صفوها شىء ، خالصاً للقرطاس والقلم . . . أدبج « الحواديت » التى لم تلق من « سقراط » العظيم إلا كل زراية وامتهان !

أولادنا

مجموعة من القصص الرشيقة المفيدة
يجد فيها الطالب فى جميع مراحل النمو
المتعة والثقافة وسمو النفس .

		ص
١	عمرون شاه	١٢
٢	مملكة السحر	١٢
٣	كريم الدين البغدادى	١٢
٤	آلة الزمان	١٢
٥	الأمير والفقير	١٢
٦	كتاب الأدغال	١٢
٧	بينوكيو	١٥
٨	نبوءة المنجم	١٢
٩	روبن هود	١٢

تصدرها

دار المعارف بمصر

بإشراف الأستاذ محمد فريد أبو حديد

893.7T136
0

BOUND

JUN 27 1957

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU58880666
893.7T136 O
Abu Ali al-Hannan wa
893.7T136-O